

حديث الإفك



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:



حديث الإفك

الجزء الأول

كم كان عمر عائشة عندما نكحها النبي؟



الجزء الأول: كم كان عمر عائشة عندما نكحها النبي؟

في هذا الكتاب سأحاول أن أقدم نظرية مفتراة من عند نفسي على هذا السؤال: كم كان عمر عائشة عندما نكحها النبي محمد؟

ولكن قبل أن ندخل في صلب النقاش أجد لزاما التحذير من اعتبار كلامي في هذا الموضوع أكثر من رأي فكري مبني على مبدأ المحاولة، القابل للتصحيح في كل وقت وحين. لذا نحن نطلب من أهل العلم أن يأخذوا كلامنا هذا على حرفيته، فلا يخرجوه عن سياقه النظري، لأن في الأمر من الحساسية ما قد يثير فضول العامة من الناس، ويأجج مشاعرهم التي غالبا ما تدفعها العاطفة غير المتوازنة في كثير من الأحيان. فكم حاول الكثيرون ممن يحبون أن تذكر أسماؤهم في خانة أهل العلم وخاصة اللذين لا يسرهم سماع مثل قولنا هذا اجتزاء النصوص من سياقاتها، وبالتالي تحريف المفردات عن مقاصدها، لغايات في نفوس أصحاب الرأي لا يعلمها إلا البارئ الصمد. فإلى الله وحده أبرأ من كل من يأخذ كلامي على غير مقصده ومن كل من يخرجه من سياقه لغاية في نفسه.

أما بعد،

بداية، أود التأكيد على موقفي الثابت المتمثل بأني لا أريد الدخول في جدليّة مع أحد، فأنا لا أرد قول أحد، ولا أطلب من أحد أن يتبنى رأيا لي ما لم يجد أنه مقتنعا به، ظانا بصحته. ولمّا كانت هذه هي منهجيتي، فلا أجد حاجة ملحّة في جلب آراء الآخرين في هذا الموضوع، مادام أني لا أجد أن هدفي أن أبين خطأ بعضها أو صحة بعضها الآخر، فأنا لا أنافس أحدا في تحقيق رأي ما أورده. لذا من أراد البحث في الآراء التي قيلت في هذا الموضوع من ذي قبل فبطون الكتب الصفراء حبلى بالكثير منها، وهي الآن متوافرة بكل يسر وسهولة على الشبكة العنكبوتيّة، كما أنها من المواضيع الأكثر بحثا في مواقع التواصل الاجتماعي، فقد أصبحت مثار نقاش ليس فقط بين أهل العلم وخاصته وإنما للعامة من شتى التيارات الفكرية والدينية والاجتماعية أيضا. لكن على الرغم من محاولتي المستميتة في التفلت من هذا الإرث القديم، أجد لزاما عليّ أن أسطر بعض النقاط الجوهرية التي ميزت جملة الآراء السابقة في هذا الموضوع، وهي النقاط نفسها التي ستكون محط نقاش في هذا البحث الذي نظن أنه فيه شيء جديد ربما يكون غير مسبوق في هذا المجال. والجديد في الأمر يتمثل في أمرين اثنين:

- ⇐ منهجية البحث
- ⇐ نتيجة البحث

أما بعد،

- ⇐ أولا، كان موضوع زواج النبي من السيدة عائشة من المواضيع الأكثر جدلية على مر التاريخ الإسلامي
- ⇐ ثانيا، كانت فوارق الأفهام في هذا الموضوع من سمات المذاهب المختلفة وخاصة الانفصام التاريخي بين قطبي الإسلام الأكبرين: أهل السنة والجماعة مقابل المتشيعين لأهل البيت

⇐ ثالثا، نحن نعتقد جازمين أن الآراء في هذا المجال عند الغالبية الساحقة منهم كانت على الدوام مدفوعة بالقناعات المذهبية المسبَّقة، فعقيدة أهل السنة والجماعة تنظر إلى الموضوع من المنظور الأشمل المتمثل بالدفاع عن زوجات النبي، وعدم القدح في أي منهن (خاصة عائشة) مهما كانت الأسباب والمسوغات. ولكن – بالمقابل- كانت عقيدة معظم أهل التشيع مبنيّة على التشكك بالسيدة عائشة على وجه الخصوص، حتى وصلت الجرأة ببعضهم إلى سبها وشتمها جهارنا نهارا، ليس لدليل ثابت عنده وإنما لأن ذلك (في ظنهم) مما يقربهم إلى الله زلفى.

⇐ رابعا، لعل جل الفكر السائد عن هذا الموضوع (حتى عند أهل الفكر المتمدن) قد استند إلى الدليل النقلي المروّي عن الناس، فالمدافع عن عائشة يجلب عشرات الأحاديث التي تبين فضائلها ومحاسنها، والمهاجم للسيدة عائشة يجلب عشرات المرويات عن جماعته التي تدلّل على تبيان ما يظن أنه من مساوئها وهفواتها.

⇐ خامسا، نحن لم نجد دليلا واحد من قبل الطرفين يستند إلى الحجة القرآنية غير تلك المشبعة بالاستعارات والمجازات، فالمدافع يراها في كل ما هو جميل من القول، والمهاجم يراها في كل ما هو مذموم منه.

الخ.

منهجيتنا

لمّا كان غيرنا قد بذل جهده في الدليل البشري النقلي، فقتلوه بحثا (وإن لم تكن النتائج قد أفضت إلى فض الخلاف أو حتى جزء منه)، وجدنا أنه لازال هناك فرصة متاحة أن نبحث عن ظالتنا في مكان آخر، سالكين طريقا تكاد تكون غير مسلوكة بعد، وهي البحث عن الدليل في كتاب الله نفسه.

فنحن نحاول في هذه المقالة تبيان الحقيقة (أو جزء منها) الخاصة بالسيدة عائشة (إحدى زوجات النبي) بالاستناد على الدليل القرآني الحقيقي (غير المجازي). ولمّا كان هذا الموضوع ذات أبعاد كثيرة ومتشعبة، وجدنا لزاما (بداع توخي الدقة في البحث) أن نحصره في أجزاء بحثية متقطعة، ليصار إلى جمعها في نهاية المطاف للخروج بتصور شامل عن الموضوع.

وقد أجاءنا الظن أن نبدأها بالجزء الأول الخاص بزواج النبي من السيدة عائشة، مثيرين التساؤل التالي: كم كان عمرها عندما خطبها النبي الكريم؟ أو كم كان عمرها عندما عقد عليها النبي الكريم عقد النكاح؟ أو كم كان عمرها عندما لامسها النبي الكريم؟

توطئة

لم يكن السبب الذي دفعني إلى طرق هذا الباب يتعلق بفض الخلاف في هذا الموضوع بين أهل السنة والجماعة من جهة وأهل التشيع من جهة أخرى، لأنني على العقيدة التي مفادها بأنه لو جئتهم (شيعة أو سنّة) بكل آية ما تبعوا قبلتك وما بعضهم بتابع قبلة بعض. فالعقائد بالنسبة لهم مسبّقة والبحث فيها يقع في باب المحرمات التي تمس أسس العقيدة عندهم، وتُخْرِج المخالف من الملّة برمتها. لذا أحمد الله أنه لم يشاء الهداية لمن لا يشاءها بنفسه.

لكن المحرك الأهم بالنسبة لي في هذا الموضوع هي تلك الهجمة الغربية على شخصية النبي الكريم من هذا الباب. ففي خلال معيشتي في الاغتراب لسنوات، ومن خلال قراءاتي لكتابات الكثيرين من المهتمين منهم بهذا الشأن، وجدت الهجوم واضحا يتلخص عندهم في المقولة التالية: "رسول الإسلام محمد ينكح الأطفال" (أو paedophile بالمفردات الأعجمية)، في إشارة واضحة لزواجه من عائشة على وجه الخصوص. ولعل الرسومات الكريكاتورية التي صوّرت النبي الكريم لم تظهره أكثر من زير نساء، هاوٍ معاشرة الأطفال.

ولعل الأفلام المسيئة لشخص النبي الكريم لم تخرج عن هذا السياق والتي عندما وجد مخرجها أن الهجمة عليه شرسة من أهل الإسلام، اللذين يظنون أنهم يحبون نبيهم، جاءته المشورة ممن حوله أن يذهب بنفسه إليهم فيعلن إسلامه في مكة، فلا يسفك دمه على أيدي بعضهم بعد التهديدات الكثيرة التي تلقاها وسمع عنها، ففعل. فكانت النتيجة أن أُغدقت عليه الأموال وقوبل بالترحاب على شاشات التلفزة الإسلامية، وودع بالهدايا والأعطيات عند مدرجات طائراتهم ذات النجوم السبعة. ففهم هذا الرجل (وكل الغرب من بعده) أن من السهل التعامل مع هذه الأمة، والأسهل أن يضحك على ذقونها حتى من أقل الناس دهاء في بلادهم. فصاحِب الفلم ذاك قد كسب المال الوفير عندما كال التهم جزافا لنبيهم في فلمه الذي بثته كثير من شاشات التلفزة في العالم أجمع، وكسب المال الأكثر عندما قدّم اعتذاره الشفهي لهم، فهو إذن كمن صاد عصفورين في حجر واحد.

رأينا: لو كان أهل الإسلام أصحاب مواقف صحيحة، مبنية على أفهام واضحة لكتاب الله وسيرة نبيهم الكريم، لما ردوا عليه بأكثر من الحجة والبرهان لا بالوعيد بالقتل والذبح. فرد التهم لا تكون بفتل عضلات من لا يحسنون التفكير كال... من يدري؟!!!

فكيف يمكن أن نرد على مثل مقولتهم هذه؟ وكيف لنا أن نقدم الدليل القاطع على براءة نبينا الكريم من كل هذه الإساءات التي أبعدت الناس عن الدين الحق؟

رأيي: بداية، أجد لزاما أن أعترف بملء الفم بأن مفكري الغرب لم يكذبوا فيما قالوا، وفي إلقاء تهمهم تلك جزافا في كل محفل من محافلهم وعلى كل منبر من منابرهم، وذلك لأنهم (نحن نعترف) ينقلون اتهاماتهم تلك من بطون أمهات كتب المسلمين أنفسهم، فهم يحتجون بروايات ثبتت صحتها في أكثر الكتب الإسلامية وثوقا كصحيح البخاري ومسلم وشروحاتها الكثيرة. ومفاد القول عندهم هو أن النبي محمد قد عزم عقدة النكاح على عائشة عندما كانت في سنتها السادسة من العمر.

ولما وجد أهل الإسلام في بلاد الاغتراب أنفسهم واقعين في محل اتهام مباشر، يتعلق بشخص نبيهم الكريم، انقسموا بشكل رئيسي إلا فريقين اثنين:

⇐ ظن أهل الدين منهم أن هذا شرع وجب أن يُقرأ في سياقه التاريخي والاجتماعي، فبدءوا يبحثون عن المخارج التي ربما تسوّغ (في نظرهم) مثل هذا الفعل في تلك الحقبة التاريخية وفي ذلك المجتمع القبلي (مكة). فصُبِغت جميع تحليلاتهم بالصبغة المحلية، متناسين في الوقت ذاته أنهم يتحدثون عن المشرّع الأول في هذا الدين وهو شخص النبي نفسه. عندها لم يستطع هؤلاء أن يجيبوا على تساؤل أهل الغرب التالي: هل ما كان يفعله محمد إذا خاصا بتلك الفترة الزمنية وبذلك المجتمع القبلي؟ وإن كان كذلك، فهل يصبح ما يفعله محمد سنّة لمن لا يعيش مثل تلك الثقافة؟ فلم إذا تجبروننا على دين هو خاص بأهل منطقة جغرافية محددة وبزمن تاريخي معين؟!

⇐ ظن العلمانيون منهم أن هذا لم يكن فعل من أفعال النبي إطلاقا، وأن هذه ليست أكثر من روايات مغلوطة، لا يمكن التثبت من صحتها بدليل تناقض الروايات نفسها في المصادر المختلفة، فبعضهم قال بأنه تزوجها عندما كانت في السادسة من العمر، وبعضهم قال أنها كانت في التاسعة، وقال آخرون أنها كانت في السادسة عشر من العمر، وهكذا.

لكن على الرغم من هذا الجدال الذي لازال دائرا حتى بعد أربعة عشر قرنا من الزمن، لم نجد من يقدّم دليلا واحدا على صحة ما يزعم من كتاب الله نفسه. فلقد ظن الكثيرون بأن كتاب الله لم يتدخل في هذا الأمر، وأن هذا أمر من الأمور التي جلتها السنّة المطهرة (أي أفعال النبي نفسه). فكيف إذا سنبحث عن مخرج لها من الكتاب الكريم؟

السؤال محور البحث: هل فعلا خلا كتاب الله من دليل يثبت رأيا محددا في هذه القضية؟ فهل يمكن أن نجد في كتاب الله ما يمكن أن يفضّ مثل هذا الخلاف بأي اتجاه؟

جوابنا المفترى من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن باستطاعتنا أن نجلب الدليل الذي يمكن أن يحل الإشكالية في هذه القضية الخلافية. فأين هو؟

رأينا: من أجل جلب مثل هذا الدليل نحن نجد أن الضرورة تستدعي أن نخط العقيدة التالية التي نؤمن بها إيمانا مطلقا، ألا وهي:

⇐ ما كان محمد ليفعل شيئا من تلقاء نفسه

⇐ ما كان محمد ليخالف ما أُنزل إليه من ربه

لذا، لمّا كان محمد يريد أن يتزوج، فلابد (نحن نفتري القول) أنه قد قام بفعل الزواج بجميع تفاصيله على نحو يتوافق مع شريعة ربه التي أنزلها إليه في كتابه الكريم وطلب منه إيصالها للناس كافة (وليس فقط لأهل الصحراء في جزيرة العرب في القرن السادس والسابع الميلاديين).

السؤال: ما الذي فعله محمد إذن؟

رأينا: عندما كان محمد يريد أن يخطب للزواج أو أن يعزم عقدة النكاح لنفسه أو لغيره، أو أن يلامس النساء، فلابد أنه قد راعى في ذلك ما يطلبه منه شرع ربه كما جاء في كتاب الله الكريم، ولا يستثنى من ذلك ما يتعلق بسن الفتاة المنكوحة، لأن ذلك سيصبح سنة متّبعة من بعده عند كل متبع للدين الذي جاء به محمد بغض النظر عن زمانه وموطنه.

السؤال: هل هناك إشارة واضحة في كتاب الله تفيد في تحديد سن الفتاة المنكوحة؟ يسال صاحبنا.

جواب: نعم. نحن نفتري الظن بأن هناك إشارات كثيرة جدا، وهي (في ظننا) واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار، تشير إلى تحديد سن الفتاة التي يجوز أن تخطب أو أن تنكح أو أن تمس.

السؤال: وأين ذلك؟

جواب مفترى: نحن نجد الإشارات واضحة في آيات كثيرة جدا مثل الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 232]

- ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء: 3-4]
- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء: 22]
- ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء: 127]
- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: 50]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]
- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾ [البقرة: 235-236]
- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: 19]
- ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾ [النساء: 24]
- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النساء: 43]
- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: 129]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]
- ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ

أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: 31]

- ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ [النور: 60]
- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ [النمل: 55]
- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ [الأحزاب: 32]
- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ [الأحزاب: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ [الطلاق: 1]

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟ لم أفهم شيئا. يقول صاحبنا.

رأينا المفترى: نحن نجد الدليل على ما نفتري من الظن في مفردتين اثنتين وردتا في الآيات الكريمة السابقة، وهما:

⇐ مفردة النكاح وما يماثلها (الخطبة واللمس والطلاق)
⇐ مفردة النساء (غير المشتقة)

ولكن كيف ذلك؟

باب النكاح

عندما حاولنا أن نتدبر الآية الكريمة التالية، وجدنا (مفترين الظن من عند أنفسنا) بأن النكاح هو عبارة عن مرحلة عمرية يبلغها الذكر أو الأنثى. بدليل أنها تبلغ بلوغا. انظر الآية:

- ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ [النساء: 6]

فدفع المال لليتامى لا يصبح واجبا إلا عندما يصل اليتيم إلى مرحلة عمرية محددة (وهي بلوغ النكاح)، أليس كذلك؟

السؤال: متى يبلغ اليتيم النكاح؟ أو ما معنى أن يبلغ اليتيم النكاح؟

جواب: عندما يبلغ الكتاب أجله:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: 235]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأنه يستحيل أن تُعزم عقدة النكاح قبل أن يبلغ الكتابُ أجله.

تساؤلات

- ⇐ ما هو النكاح؟
- ⇐ ما هي عقدة النكاح؟
- ⇐ ومتى تعزم عقدة النكاح؟
- ⇐ وما هو الكتاب؟
- ⇐ وما هو أجله؟
- ⇐ ومتى يبلغ الكتاب أجله؟
- ⇐ الخ.

ما هو النكاح؟

تحدثنا عن هذه القضية في مقالات سابقة لنا وافترينا الظن حينئذ أن الفكر الإسلامي السائد قد أخفق في فهم معنى مفردة النكاح كما جاءت في كتاب الله، وكان سبب هذا الغلط هو أنهم أسقطوا فهمهم التراثي والشعبي على المفردة القرآنية ولم يحاكموا المفردة القرآنية بناء على النص القرآني نفسه، فخلطوا مفردات مثل (وَلَا تَنْكِحُوا و حُرِّمَتْ عَلَيْكُم، وَأُحِلَّ لَكُمْ، وَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ، الخ. ولم يبيّن أهل الدين (نحن نفتري القول) للعامة من الناس الهدف من هذا التنوع اللفظي في موضوع الزواج. وكان الخلط واضحا عند العامة على سبيل المثال عندما ترد مفردة النكاح في الآيات القرآنية، فيظن الكثير منهم أن ذلك يعني المعاشرة الجنسية، وهذا (نحن نظن) خطأ جسيم أوقع الكثيرين في إشكالية فهم السياقات القرآنية الخاصة بالموضوع وما يترتب عليها من أحكام تشريعية، وقد افترينا الظن حينها أن الفهم الصحيح الدقيق لمفردة النكاح مثلاً (كما ترد في كتاب الله) سيسهم – لا شك- في تصحيح بعض تلك الأحكام التي نظن أنها خاطئة.

رأينا المفترى: إن جل ما نود قوله في هذا المجال هو أن مفردة "النكاح" لا تعني المباشرة والمعاشرة الفعلية بين الرجل والمرأة إطلاقا، ولا تتعدى المفردة أن تدل على إنشاء الرباط الشرعي للزواج فقط دون التنفيذ العملي لهذا العقد.

الدليل

أولا، لقد نهانا الله في أكثر من موطن في كتابه العزيز عن نكاح المشركات والمشركين، قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: 221]

فكيف بالله إذا ينهانا عن نكاح المشركات ونحن نعلم أن السبايا من المشركات في الحروب مثلاً هن من غنائم الحرب التي توزّع على المحاربين؟ فكيف إذا يمكن أن نوفق بين الأمرين: المسلمون يعاشرون ما غنموا من نساء الكفار وفي الوقت ذاته ينهاهم الله عن نكاح المشركات؟

إننا نفهم أن الأمر بسيط للغاية وهو على النحو التالي: إن الله لم ينهانا عن معاشرة المشركات (مصداقاً لقوله وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ) وإنما نهانا عن نكاح المشركات؟ وفي هذا فرق كبير. فلب القول أن الفكر الإسلامي السائد أخفق في التميز بين ما أمرنا الله بنكاحه وما أحل الله لنا؟ فالله نهانا عن نكاح المشركات ولكنه في الوقت ذاته أحل لنا المشركات.

السؤال: ألا ترى أن هذه أحجية؟ ربما يرد البعض قائلا.

ألا تجد أن هذا كلام متناقض؟ كيف ينهانا الله عن نكاح المشركات ويحل لنا فروجهن في الوقت ذاته؟

جواب مفترى: نعم هو كذلك. وتلك ليست لعبة كلمات متقاطعة، وإنما هي دقة متناهية في تميز الألفاظ التي يجب أن نقف عندها ونتأملها كما يجب، وأن لا نمر عليها مرور الكرام.

إن مراد قولنا هو أنّ النهي الإلهي جاء عن "النكاح" وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ، أي لا يحل للمسلم إيجاد الرابط القانوني في أن تكون المشركة زوجة للمؤمن برباط الزواج (أو النكاح)، ولكن يحق للمسلم أن يتمتع بالمشركة دونما ذلك العقد الشرعي، وخلاصة القول فإن المسلم لا ينكح إلا مسلمة ولكن له الحق أن يتمتع بغير المسلمة دون أن ينكحها.وذلك لأن النكاح - كما أسلفنا- يعني إنشاء العقد الشرعي بالزواج، فلا يحق للمسلم أن يعقد على (أي أن ينكح) إلا مسلمة، وسيرد البعض على الفور بالقول: وأين الدليل على ذلك؟

فنقول، لنقرا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ [النساء: 25]

ألا تعني هذه الآية الكريمة أن النكاح يتم على فئتين من النساء؟ (1) المحصنات المؤمنات أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، و (2) ما ملكت يمينك من المؤمنات مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ

أما الدليل الآخر أن النكاح لا يعني مباشرة المرأة بالجماع فجاء في الآية السابقة نفسها في قوله تعالى:

- ﴿....فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ... ﴿٢٥﴾ [النساء: 25]

فما معنى أن تنكح المرأة بأذن أهلها؟ فهل يتطلب جماع المرأة طلب الإذن من أهلها؟ كلا، فالأهل يستأذنوا فقط في عقدة النكاح وليس في المعاشرة والجماع؛ فلا يعقل أن يعمد الرجل في كل مرة يقوم بجماع زوجته إلى طلب الأذن بذلك من أهلها! وأخال أن الأمر فيه نوع من الحرج إن كان يتم بتلك الصورة، أليس كذلك؟ من يدري؟!

وربما لهذا جاء في كتاب الله أن هناك من بيده عقدة النكاح للمرأة من أهلها:

- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ [البقرة: 237]

أما الدليل الثابت (في ظننا) على أنّ النكاح لا يعني ولا يتطلب وقوع الجماع فجاء في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

فإن نحن أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة نجد المعنى واضحاً لا لبس فيه: حصول ووقوع النكاح دون حصول الجماع والمعاشرة الفعلية: إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ. نعم - لا شك- تنكح المرأة دون أن تمس، أليس كذلك؟

وقد تأكد هذا المعنى في مواطن أخرى في كتاب الله:

- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ [البقرة: 236]

- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]

فالآيات الكريمات تشير إلى احتمالية وقوع الطلاق، ومما لا شك فيه أن الطلاق لا يتم إلا بعد حصول النكاح، ولكن الملفت للانتباه هنا هو حصول الطلاق قبل أن تمس المرأة، ولعل علماء الأمة على دراية أن ما يحرم بعقد النكاح يحرم بالمباشرة والمس، فوالدة المنكوحة مثلاً تحرم بمجرد حصول عقد النكاح.

ولننظر إلى الفرق بين النكاح والمباشرة بالجماع (أي ملامسة النساء) كما ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

فهناك فرق جوهري بين أن تنكح المرأة وأن تمس المرأة: إنها العدة، فالمرأة التي نكحت دون أن تمس فليس لناكحها عدة عليها، ولكن المرأة التي نكحت ومست فلا شك أن عليها عدة تعتدها لزوجها الذي طلقها.

وهناك فرق آخر وهو حصتها مما فُرِض لها في عقد النكاح، قال تعالى:

- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]

فالمرأة المنكوحة إن طلقت دون أن تمس فلها نصف ما فُرض لها في عقد الزواج، أما المرأة المنكوحة التي مست فلا شك أن حقها كامل في ما فرض لها في عقد النكاح.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نستنتج إذن أن الله عندما يأمرنا بالنكاح أو ينهانا عنه فلا يتعدى ذلك حصول عقد الزواج الشرعي وليس بالضرورة أن تحدث المباشرة الفعلية بالجماع والمعاشرة.

السؤال: متى يمكن أن يقع فعل النكاح؟

جواب مفترى: عندما يبلغ الذكر أو الأنثى سن النكاح: انظر الآية الكريمة التالية جيدا:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]

أو لنقل عندما يمكن أن نعزم عقدة النكاح، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا عندما يبلغ الكتاب أجله:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة: 235]
- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]

السؤال: متى يمكن أن يبلغ اليتامى (ذكورا وإناثا) النكاح؟ أو متى يمكن أن تعزم عقدة النكاح؟ ومن الذي بيده عقدة النكاح؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: عندما تصبح الأنثى من النساء.

باب النساء

لو تدبرنا مفردة النساء في السياقات القرآنية لوجدناها مصاحبة لفعل النكاح، الأمر الذي يدعونا إلى تقديم الافتراء الخطير جدا جدا التالي: أن فعل النكاح لا يقع إلا عن من كانت من النساء.

السؤال: وما الغريب في ذلك؟

رأينا: يجب أن نميز بين من كانت من الإناث ومن كانت من النساء. فليس كل من كانت أنثى هي من النساء. ولكن من كانت من النساء فهي بلا شك من الإناث.

الدليل

إن الذي دفعنا إلى تقديم مثل هذا الافتراء هو تساؤل أثير في نفسي حول منطوق الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء: 22]

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: 235]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 232]

التساؤل المثير: ألا تجد - عزيزي القارئ- أن هناك حشو (غير لازم) في هذه الآيات الكريمة في قوله تعالى وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ؟ فهل نكح آباؤنا (نحن نسأل) شيئا آخر غير النساء حتى يأمرنا الله بأن ننكح النساء على وجه التحديد؟ فهل نكحوا شيئا من الدواب أو من الجن ونحوهم حتى أمرنا الله بالاكتفاء بنكاح النساء مثلا؟

ثم، ألا ينطبق ذلك على قوله تعالى فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ؟ فهل يمكن أن يخطب غير النساء؟ ثم، ألا ينطبق ذلك على فعل الطلاق أيضا: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ؟ فهل يمكن أن تُطلّق من كانت من غير النساء؟ هل يمكن أن يقع الطلاق على الدواب أو الطيور أو الذكور، الخ؟

التساؤل: مادام أن النكاح يقع على المرأة أصلا، ومادام أن الخطبة تكون للمرأة فقط، ومادام أن الطلاق يقع على المرأة أيضا، فلم يصرح اللفظ القرآني بذلك؟ ألا يكفي أن تأتي مفردة النكاح أو مفردة الخطبة أو الطلاق دون الحاجة إلى مرافقة لفظة النساء لها، لنفهم أن هذا الفعل (النكاح) أو ذاك الفعل (الخطبة أو الطلاق) يقع على المرأة، وكفى؟ وهكذا؟

رأينا: كلا وألف كلا. نحن نظن أن ذلك هو مقصد القول وغايته: ففعل النكاح وفعل الخطبة وفعل الطلاق لا يقع إلا على من كانت من النساء فقط.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن فعل الطلاق (نحن نفتري الظن) لا يقع على كل من كانت من الإناث فقط، ولكنه يقع على من كانت من النساء من الإناث. فالأنثى (نحن نفتري القول) لا تنكح إلا إذا أصبحت من فئة النساء. وبالمثل فإن الأنثى لا تخطب إلا إذا اصبحت من النساء ولا تلامس إلا إذا أصبحت من النساء ولا تطلق إلا إذا كانت من النساء. فأفعال الخطبة والنكاح والملامسة والطلاق هي أفعال ملازمة لمفردة النساء.

السؤال: ما الفرق؟ وما معنى أن تكون الأنثى من النساء؟ ومتى لا تكون الأنثى من النساء؟ ومتى تصبح الأنثى من النساء؟

رأينا: لو تدبرنا جميع السياقات الخاصة بالنكاح والخطبة والطلاق وتلك الخاصة بالنساء لوجدنا التلازم الذي لا تنفك عراه بين الطرفين. انظر جميع السياقات القرآنية في هذا الصدد مرة أخرى:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 232]

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء: 3]
- ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: 22]
- ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: 127]
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: 50]
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: 231]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 232]
- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: 235]
- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: 236]

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]
- ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: 4]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 19]
- ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: 24]
- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 34]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: 43]
- ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: 129]
- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 81]
- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

- ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠﴾ [النور: 60]
- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: 32]
- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: 1]

وهذا لا يعني أن فعل الشهوة يقع على النساء فقط ولكنه يمكن أن يقع على الرجال أيضا:

- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: 55]

السؤال: من النساء؟ أو ما معنى مفردة "النساء" في النص القرآني؟ أو لنقل: متى تصبح الأنثى من النساء؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن هناك شروطا محددة هي ما تجعل الأنثى تقع في قائمة النساء التي يمكن أن تخطب، فتنكح، فتلمس، فتطلق. وهذه الشروط هي:

⇐ العورة

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

⇐ المحيض

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

⇐ اللباس

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن الأنثى لا تبلغ مبلغ النساء إلا عندما تكون قد وصلت مرحلة المحيض، لأن المحيض هو صفة ملازمة لمن كانت من النساء فقط (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)، عندها تصبح لتلك الأنثى عورة مادام أنها بلغت مبلغ النساء (يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)، فللنساء عورات لا يحل لمن كان من الذكور أن يظهر عليها، ويستثنى من ذلك من كان من غير أولي الإربة من الرجال (أي المخنثين اللذين لا ينتصب عضوهم الذكري) أو من كان طفلا لأن هؤلاء وإن ظهروا على عورات النساء، فذاك لا يقدم في الأمر شيئا ولا يؤخر فيه. وما أن تحيض الأنثى وتصبح لها عورة يحرم على الذكور الظهور عليها حتى تصبح الحاجة ماسة أن تغطي تلك الأنثى التي بلغت مبلغ النساء عورتها، فيصبح اللباس الشرعي أمرا لا مفر منه. (وسنتحدث عن هذا اللباس في مقالة مستقلة بحول الله وتوفيقه).

فيكون ذلك إيذانا (طبيعيا، فطريا، كونيا) بأن هذه الأنثى قد بلغت مبلغ النساء، فتصبح جاهزة للخطبة أو أن يعزم عليها عقدة النكاح، فتمس وتلامس من قبل الرجال الراغبين فيها، وتطلق إذا ما كرهها ناكحها:

- ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: 3]

السؤال: هل تظنون - يا سادة - أن محمدا ربما غفل عن ذلك في الأمر الإلهي الذي وجّه له شخصيا في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: 52]

هل تظنون - يا سادة- أن محمدا قد غفل أنه لا يحل له إلا من كانت من النساء من الإناث؟

هل تظنون - يا سادة- أن محمدا كان سيخطب غير من كانت من النساء مادام أن الأمر الإلهي بالخطبة كان خاصا بمن كانت من النساء؟

هل تظنون - يا سادة- أن محمدا كان سينكح من لم تكن من النساء مادام أن الأمر الإلهي في النكاح كان خاصا بالنساء؟

هل تظنون – يا سادة- أن محمدا كان سيلامس من لم تبلغ مبلغ النساء مادام أن الأمر الإلهي بالملامسة قد جاء خاصا بالنساء؟

أما أنا، فإني على العقيدة التي لا تتزحزح بأن محمدا كان يعي تماما الوحي الإلهي، وأن محمدا كان يطبق ذلك الوحي بكليته دون زيادة أو نقصان أو تجاوز، لذا فهو قد خَطَبَ من كانت من النساء، ونَكَحَ من كانت من النساء، ولامس من كانت من النساء، ولا أظن أن السيدة عائشة كانت استثناء في ذلك.

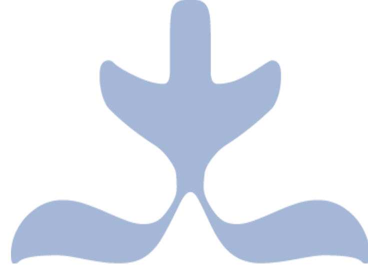
والله أعلم

ملحوظة: هذا الكلام ليس موجها لأهل الدين الإسلامي، وهو بكل تأكيد ليس موجها لطائفة بعينها، ولا شك أنه غير موجه لخطيب مسجدنا في الجمعة الماضية الذي تشدقت أوداجه وهو يتهمني بالتصريح والتلميح بأني ممن يسبون صحابة رسول الله، لأن هؤلاء بالنسبة لي من أمثال النعامة التي تخبئ رأسها في الرمل فتظن أنها قد نجت، وهي لا تعلم ما يفعل بمؤخرتها.

لكن كلامي هذا موجه بشكل خاص إلى العالم الخارجي، إلى اللذين يتهمون محمدا عن غير علم، وأخص منهم – على وجه التحديد- علماء بني إسرائيل، لأقول لهم: هذا ما في كتاب ربنا، فهاتوا ما عندكم لنرى من الذي تعدى وتجاوز وتطاول على أنبياء الله ورسله وأهلهم وأصحابهم. فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يجعل فضله علي عظيما، وأعوذ به أن افتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية



حديث الإفك

الجزء الثاني

كيف كان حديث الإفك خيرا لنا؟



الجزء الثاني: كيف كان حديث الإفك خيرا لنا؟

قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

نحاول في هذا الجزء من الكتاب إثارة التساؤل الأكبر الذي يمكن استنباطه من هذه الآية الكريمة، ألا وهو: لماذا نفي الله أن يكون الإفك الذي جاء به عصبة منا شرا لنا (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم)؟ ولماذا جاء التبيان الإلهي في هذه الآية الكريمة بأن في ذاك الإفك نفسه خير لنا (بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)؟ فكيف يمكن لنا أن نفهم ذلك؟

رأينا: لو أمعنا التفكر في تاريخ هذه الأمة التي تدّعي أنها تتخذ من الإسلام دينا لربما لم يصعب علينا أن نجد أن أكبر انقسام في تاريخها قد غذّاه حديث الإفك هذا. فانقسم المنتسبون إلى الإسلام إلى فريقين رئيسيين متناحرين، يتبنيان وجهتي نظر متضادتين. ففي حين أن المنتمين للفريق الأكبر حجما (أهل السنة والجماعة) يستميتون في الدفاع عن السيدة عائشة لأنها واحدة من زوجات النبي، وهي في الوقت ذاته ابنة الصحابي الأول أبي بكر الصديق، فإن أغلب طوائف الفريق الثاني (اللذين آثروا تسمية أنفسهم بالشيعة) لا يتوارون في القدح بالسيدة عائشة ووالدها جهارا نهارا.

تساؤلات

- ⇐ لماذا هذا الاختلاف على زوجة النبي عائشة على وجه الخصوص؟
- ⇐ متى بدأ هذا الاختلاف؟
- ⇐ ما علاقة حديث الإفك في هذا الاختلاف؟
- ⇐ ما حقيقة حديث الإفك؟
- ⇐ ما الذي حصل حينها؟
- ⇐ لماذا سكت النبي فترة طويلة من الزمن؟
- ⇐ لماذا تأخر نزول الوحي لتبرئة عائشة؟
- ⇐ ماذا كانت ردة فعل الصحابة حينئذ خلال هذه الفترة (فترة الاتهام)؟
- ⇐ كيف تفهم الفرق الإسلامية المختلفة الآيات التي تتحدث عن التبرئة؟
- ⇐ كيف كان موقف الصحابة من التبرئة حينئذ؟
- ⇐ من هم أولئك العصبة الذين جاءوا بالإفك أصلا؟
- ⇐ كم كان عددهم؟
- ⇐ لماذا لم يعمد النبي إلى إقامة الحد على عائشة على الفور مادام أن هناك من شهد ضدها؟
- ⇐ ماذا فعل النبي بالذين جاءوا بالإفك بعد أن جاءت التبرئة لها بقرآن من السماء يتلى على مسامع الجميع؟

- ⇐ لماذا لم يعمد النبي إلى إقامة حد قذف المحصنات الغافلات على اللذين جاءوا بالإفك بعد أن ثبت بطلان دعواهم؟
- ⇐ ما تداعيات هذا الموقف على حالة الأمة الإسلامية لاحقا؟
- ⇐ ما علاقة هذه الحادثة بالخلاف الذي حصل بين عائشة وعلي لاحقا؟
- ⇐ وأخيرا، كيف علينا بعد هذا كله أن لا نحسب أن الإفك شرا لنا؟
- ⇐ وكيف علينا أن نتأكد بأنه خير لنا؟
- ⇐ الخ.

هذه هي الأسئلة الرئيسة التي ستوجّه النقاش في الصفحات القادمة من هذه المحاولة البحثية المتواضعة الذي قد يستغرق الحديث فيه عدة أجزاء قادمة، سيكون هذا الجزء هو أولها. لذا نحن نطلب من القارئ أمرين اثنين. أولهما إعطائنا المساحة الكافية لعرض أفكارنا قبل أن يقفز بنفسه إلى استنباطات هي من عنده لا علاقة لنا بها من قريب أو بعيد، فنحن لا نقبل أن يضع أحد الكلام في فمنا، فيقولنا ما لم نقل. وثانيهما، أن يثق باعتقادنا في الوقت ذاته أن محاولتنا هذه ليست أكثر من رأي فكري قابل للتصحيح. لذا نحن نطلب من القارئ الكريم (كما نفعل على الدوام) عدم القناعة بما يجده مكتوبا هنا ما لم يثبت له أن الدليل الذي نقدمه مقبول عنده، وأن الحجّة التي نسوقها متوازنة وغير مدفوعة بأجندة مسبقة. فنحن (كطلاب علم) هدفنا البحث عن الحقيقة بإتباع الدليل حيثما وجّهنا، وليس من واجبنا الخروج للناس بتشريعات وعقائد تصل إلى درجة المسلمات لديهم. فتلك وظيفة أهل الدين. فرجل الدين المتخندق في مذهبه هو من ينافح عن معتقده، عندما يحال جاهدا أن يبيّن نقاط القوة عنده، ويبحث (بعينيه وأذنيه وقلبه) عن هفوات الآخرين، وربما يتجاهل (عن قصد أو غير قصد) هفواته وسقطاته. ولو قلَّبت محطات التلفزة التي تبث لهؤلاء صباح مساء لوجدت أن محبيهم (ومريديهم) يجدون الحقيقة (كل الحقيقة) فيما يسمعون منهم، ولوجدت في الوقت ذاته أن كارهيهم لا يرون فيهم إلا شيطانا رجيما يستغفل العامة بأكاذيب وأباطيل لا تنطلي (في ظننهم) إلا على أتباع ذاك المحدِّث من أهل عقيدته. فالمسلم الذي يرى حشود المسيحيين في حضرة بابا الفاتكان في القداس الأكبر لا يرى في ذلك إلا جمعا من العامة يقودهم كبيرهم كما يقود الراعي الخرافَ إلى مرعاها، فهم يأكلون ما يقدّم لهم ويشربون متى ظن أنهم بحاجة إلى الماء، فلا يشربون إلا إنْ هو رغب أن يسقيهم. فترى أفواههم وأيديهم تتطاول إلى قطرات الماء التي تتطاير من إبريقه تجاههم.

والصورة تتكرر معكوسة متى ما نظر أهل الدين المسيحي لقطعان الطوائف من المسلمين والبوذيين واليهود (وغيرهم) يلهثون وراء كبيرهم، ينهلون من علمه "الغزير"، يتسابقون في تقبيل يده، ويتباركون بثوبه، وهم يظنون أنه وحده من سيسكن الفردوس الأعلى، فيتوددون له، علّهم يكونوا من رفقائه هناك، ويكأن مفاتح أبواب الجنان قد صكّت، وما استودعت إلا في جيبه.

السؤال: هل يستطيع معتقد بديانة ما (أو صاحب مذهب ديني) أن ينظر إلى نفسه بعين النقد التي ينظر بها إلى غيره؟ أي، هل يستطيع اليهودي أن ينتقد نفسه كما يفعل عندما يصبّ جام غضبه على أهل الإسلام وهو ينتقد طقوسهم وشرائعهم؟ وهل يستطيع من هو مسلم الديانة أن يتفهم وجه نظر النصراني

الذي يقف ساعات طويلة ينتظر أن يطل عليه بابا الفاتكان برأسه من شباكه؟ وهل يستطيع أن يتفهم البوذي الذي يكاد يغرق لأيام في نهر من الماء ويصعد أسابيع إلى رأس جبل ليؤدي طقوس الحج هل يستطيع هذا أن يتفهم لِم يذهب المسلمون في رحلة طويلة ليلفوا أشواطا سبعة حول حجر في قلب الصحراء الملتهبة؟ وهل يستطيع من يلبس القلنسوة ويطيل جدائله حتى أكتافه من أهل الديانة اليهودية أن يتفهم لِم يرفع المسلم ثوبه حتى أوسط ساقه ويطيل لحيته حتى تغطي منكبيه؟ والعكس صحيح.

السؤال: هل تستطيع فيفي عبده أن تتفهم أن الرقص قد تغيّر في عصر صافيناز؟ من يدري؟!!!

رأينا: أما نحن، فإن المنهجية الأكاديمية العلمية (التي تعلّمناها في البحث) هي سبيلنا الوحيد للوصول إلى الحقيقة أو جزء منها. لذا نحن نضع الجميع في ميزان واحد، نحاكم معتقداتهم وتصرفاتهم بنفس المعايير، فلا نكيل بمكيال لطائفة ونكيل بمكيال آخر لطائفة أخرى. ولا نعظم ما لنا ونبخس ما عند غيرنا. ولمّا كنا غارقين في البحث في الفكر الذي نعرفه (الفكر الإسلامي)، فإننا لا نتردد أن نضع الأمور كلها على طاولة البحث، فما يصمد منها في النقد فهو طريقنا، وما يفشل تركناه ولو أن أهل الأرض جميعا تمسّكوا به. ولا ننظر إلى الأمر بعين العاشق الذي يغلق عينه الأخرى (التي قد تبدي له بعض العيوب) مادام أن المعشوق هو المنظور إليه.

والأهم من ذلك كله هو أننا لا نتردد في طرح الأسئلة جميعا متى ما وضع الموضوع على طاولة النقاش، فليس هناك سؤال ممنوع طرحه وآخر مسموح مناقشته حتى الثمالة. فالعقائد السليمة (نحن نفتري الظن) هي القادرة على الإجابة على كل التساؤلات، والعقائد المنهارة (نحن نجزم القول) هي التي لا تستطيع أن تصمد أمام سؤال قد يخطر على بال الكثيرين فلا يتجرءون على طرحه خوفا من أن تنهار عقيدتهم. فإلى اللذين يخشون من أسئلتي خوفا من أن تنهار عقيدتهم، فإننا ننصحهم بعدم متابعة القراءة بعد هذا السطر لأن هناك أسئلة غاية في الخطورة ستوضع على طاولة البحث والنقاش قد لا تطيق أذنيه سماعها، وقد لا يتحمل قلبه المملوء بالإيمان إلا أن ينكرها، ويكيل التهم بالكفر والزندقة والعمالة لكل من يثيرها حتى قبل أن يسمع قولنا فيها.

قصة شخصية

عندما "هربت" من جامعة اليرموك خوفا من العقاب الذي كان ينتظرني نتيجة "المحاكمة التاريخية" التي جرت لي بسبب آرائي العقائدية، والتي شكلّ لجنة التحقيق لي رئيس جامعة اليرموك الأستاذ الدكتور عبدالله الموسى حينئذ، وتألفت من الأساتذة التالية أسماؤهم:

- ⇐ الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو الجرايش- عميد كلية العلوم – رئيسا
- ⇐ الأستاذ الدكتور محمد الطوالبه – عميد كلية التربية – عضوا
- ⇐ الأستاذ الدكتور رياض المومني – عميد كلية الاقتصاد – عضوا
- ⇐ الأستاذ الدكتور عبدالرؤوف الخرابشه - عميد كلية الشريعة - عضوا

كانت جامعة جدارا مشكورة ممثلة برئيسها حينئذ هي من أعطتني فرصة التدريس فيها حتى انتهاء القضية التي انتهت بإيقاع عقوبة الإنذار المشدّد بحقي لم "اقترفت من الإثم" بحق عقيدة آبائهم وأجدادهم في

غرفة الصف، حيث كانت حجتهم الكبرى في تمرير تلك العقوبة أن هذه القضايا يجب أن لا تطرق على مسامع طلبة الجامعة لأنهم (في ظن الأساتذة الكرام) لا زالوا غير قادرين على تمييز ما يفيدهم (كعقائد الآباء والأجداد) وما يضرهم (كافتراءاتنا وتخريصاتنا).

ولا أعلم ما السبب الذي دفع بالقائمين على جامعة جدارا بإيوائي حينئذ (بعد هذه الهزيمة النكراء لي في جامعة اليرموك) بالرغم أن رئيس قسم اللغة الانجليزية هناك قد أكد لي لاحقا أن التحذيرات من قبولي كـ عضو هيئة تدريس في قسمهم قد جاءتهم تباعا من مطاردي اللذين كان همّهم الأول هو – لا نشك- حماية دينهم وعقائدهم من هذا "الزنديق المارق". لكن بالرغم من ذلك تم إعطائي فرصة التدريس عندهم حوالي سنة ونصف من الزمن، لذا انتهز الفرصة أن أقدِّم لهم بالغ شكري بالرغم أني على يقين أن حاجتهم للاعتماد بتوفير هيئة تدريسية من خريجي الجامعات الأمريكية ربما كانت هي المحرك الأساسي وراء قرارهم الجريء ذاك.

على أية حال، ما أود أن أبيّنه هو أنه في خلال فترة تدريسي في جامعة جدارا حاولت قدر المستطاع أن أتجنب النقاش في تلك القضايا في غرفة الصف مع طلبة الجامعة، فقد تعلمت الدرس مما حصل لي في جامعة اليرموك. لكن – يجب أن أعترف- جرت لقاءات قليلة مع بعض أساتذة الجامعة، وحصلت بعض المناقشات "الفكرية" مع أهل الدراية من أولئك الأساتذة الكرام. وربما لا أبالغ أن أقول بأنه كان لتلك الحوارات (على محدوديتها) صدى لا بأس فيه في أروقة الجامعة حينئذ (وربما يعزى بعض ذلك إلى صغر حجم الجامعة كجامعة خاصة ناشئة في بلد مثل الأردن). وقد تمثل هذا الصدى في ملاحظتين رئيسيتين: أولهما، ازدياد عدد أعضاء هيئة التدريس الراغبين بالمشاركة في تلك النقاشات من أصحاب التخصصات المتنوعة، فكان هناك من أهل التاريخ واللغة والهندسة، وغيرها. وثانيهما، ازدياد الجدل في المواضيع التي كانت تطرح في تلك الاجتماعات في أروقة الجامعة خارج حلقات النقاش حينئذ.

لكن كانت المفاجأة للكثيرين من أولئك المشاركين في النقاشات (وإن لم تكن مفاجئة لي على الإطلاق) هي دعوتي الفورية للحضور إلى مكتب رئيس الجامعة على جانب من الاستعجال. وما أن دخلت مكتبه حتى بدأت "النصائح بالتعقل" تنهال" عليّ من محدثي، مبطّنة – لا شك- ببعض التهديدات من صاحب القرار إن لم أكف أنا شخصيا عن هذا الفعل "ربما المشين" في نظرهم. فكانت وجهة نظرهم أني قد تجاوزت الخطوط الحمراء المسوح بها في ذلك الصرح الأكاديمي المميز (فهي قبل ذلك وبعده آثرت أن تسمي نفسها جامعة جدارا للتميّز).

ما أن انتهى محدثي من مقدمته تلك المملوءة بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى (خصوصا الجزء الرابع منه) حتى جاء جلُّ ردي على الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة (بما أسعفتني به قدرتي اللغوية المحدودة حينها) على نحو ما يمكن تلخيصه بقولي التالي: "لاحظ سيدي رئيس الجامعة الموقر أنك تتحدث عن حواري مع أعضاء هيئة التدريس في جامعة أكاديمية علمية (أي من هم من حملة الشهادات العليا، أصحاب الخبرات التدريسية اللذين من المفترض أنهم بالغين عاقلين راشدين – بمفردات سادتنا أهل العلم). فإذا كان تحذيرك لي ينطوي على تخوفك على هؤلاء الأساتذة الكرام من أذى يصيبهم مني، فهذا يعني في نظري واحد من أمرين لا ثالث لهما:

⇐ أني رجل صاحب فكر حقيقي، مادام أني استطيع أن أُحدث تأثيرا في مثل هذه العينة من الناس، وإنْ صحّ هذا الظن فيجب عندها أن تنزلني منزلتي وتضعني في قدري الذي استحق. فمن يستطيع أن يحدث تأثيرا في فكر أهل العلم أنفسهم فهذا شخص لا يستهان به – وهذا شرف لا أظن أني ادعيه، ولكن تصرفاتكم هي ما تؤكده

⇐ وإن لم أكن كذلك، فعليك إذن أن تبحث عن المشكلة عند "رجالاتك" (باللغة الأردنية الدارجة) اللذين تظن أنهم أهل علم (وأصحاب شهادات علمية رفيعة). فكيف يستطيع "تافه" من مثلي (ربما قلت له) أن يتلاعب بعقول اساتذة كرام من أمثال هؤلاء. وهذا اتهام خطير لا أريد أن أصل إليه، إلا أن مخاوفكم المزعومة هي ما يمكن أن تشير إليه."

عندها عاد رئيس الجامعة إلى القضية فورا ليذكّرني بأن هذا الدين العظيم (أي إسلامهم) لا يمكن لأحد (مهما بلغ علمه كشخص مثلي – ربما كان يظن) أن يحدث فيه خرابا أو أن يترك فيه تأثيرا سلبيا مادام أنه دين الله الذي أنزله، وتكفّل بحفظه (على حد فهمي لكلامه). ولكن المشكّكين - أصحاب الإيمان المتزعزع (ولا أدري من كان يقصد – ربما مش أنا، من يدري؟)- هم من يطرحون التساؤلات المشبوهة، وهم من يتصيّدون في الماء العكر، وهم من يثيرون البلبلة (بالمفردات الأردنية) ربما لأغراض وأجندة خاصة بهم (ربما ما كانش يئصدني، من يدري؟). وأن مهمته كرئيس جامعة أن يحافظ على سمعة الجامعة التي يرأسها ويحفظ لها هيبتها من كل مارق وزنديق (ربما كان سيقول)، وأنه (بعد أن رفع نبرة صوته) لن يسمح بأي خلل يمس العقيدة والدين في هذا الصرح الأكاديمي. وأنه...وأنه...، الخ.

فما كان مني إلا أن وافقته الرأي على الفور (بالإشارات البدنية وتعابير وجه الولد الصغير الخائف المقرّ بذنبه أمام والده الذي هو أعرف بمصلحته من نفسه)، وحاولت الانسحاب (جبنا – لا شك) من الموقف لأني على يقين بأن غيره لن يكون أقل حدة في الكلام، لغيرته وحرقته على عقيدة آباءه وأجداده!

السؤال الذي كنت أتمنى من محاوري أن يسمعه مني (لو أني كنت أظن أنه سيعطي نفسه فرصة التفكر به قبل أن ينهال بالتهم المبطنة على أعداء عقيدة آباءه وأجداده كما فهمت من كلامه) هو: هل مجرد طرح التساؤلات – يا رئيس الجامعة- تؤثر في العقيدة؟ وهل عقيدة آباءك وأجدادك أضعف من أن تتحمل مجرد طرح السؤال؟ وما الذي تفعله أنت (كأستاذ جامعي) في قاعة الدرس مع طلابك؟ ولم نحضر الطلاب إلى غرفة صفيّة إذا لم يكن الهدف هو أن تطرق مسامعهم تساؤلات تحتاج إلى إجابات؟ وهل يمكن الوصول إلى إجابات إذا لم تطرح التساؤلات على طاولة البحث العلمي؟ أليس هذا هو منهج البحث العلمي الذي درَسناه ودرّسناه كأساتذة جامعين هدفهم التقدم في عالم المعرفة والبحث العلمي؟ من يدري؟!

رأينا المفترى: نعم. نحن نظن أن طرح التساؤلات تؤثر في العقيدة في واحدة من اتجاهين لا ثالث لهما:

⇐ إذا كانت العقيدة كاذبة "مفتراة من عند أنفسنا" فهي لن تصمد أمام طرح التساؤلات، ولذا ستبان على الفور عيوبُها، لأن ما هو بشري المصدر لن يصل إلى مرحلة الكمال مهما بلغت درجة إتقانه، ومهما انفق فيه من وقت وجهد.

⇐ إذا كانت العقيدة صحيحة "مفتراة من عند الله" فهي ستصمد أمام جميع التساؤلات مهما كانت، وذلك لأن ما هو إلهي هو مطلق الكمال والثبات، لا يمكن اختراقه ولو اجتمعت الجن والإنس على ذلك.

الدليل

خروج عن النص في استراحة فكرية قصيرة مقدمة لطرح تساؤلات أكثر خطورة

إذن، هل تتحمل – عزيزي القارئ- أن تطرق مسامعك تساؤلات قوية جدا حتى وإن بلغت أزواج النبي وحياته الشخصية؟ هل تستطيع أن تتحمل أسئلة الجميع (المؤيد والمعارض) على حد سواء؟ هل ستعطي نفسك الفرصة أن تسمع السؤال لتفكر بالرد بكل رباطة جأش ولياقة في التفكير؟ إذن، دعنا نجرب ذلك قبل الدخول في المحظورات، والهدف أن نرى إن كنت تستطيع معنا صبرا. قال تعالى:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

انظر – عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة جيدا، ألا تجد فيها شيئا يدعو إلى التساؤل: كيف نفهم أنه لو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافا كثيرا؟ فهل يعني ذلك أن في القرآن اختلافا قليلا مادام أنه من عند الله؟

رأينا المفترى: لو دققنا بمنطوق الآية الكريمة لوجدنا أن الآية تدل على احتمالين اثنين لا ثالث لهما مبنيان بالكليّة على مصدر هذا القرآن، ألا وهما:

⇐ لو أن هذا القرآن جاء من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافا كثيرا، أليس كذلك؟ فالاختلاف الكثير في القرآن كان يمكن أن نجده لو كان مصدر هذا القرآن غير إلهي، أليس كذلك؟

⇐ مادام أن هذا القرآن جاء من عند الله فلن يكون فيه اختلافا كثيرا، أليس كذلك؟

لكن دعنا الآن ندقق أكثر في الاحتمال الثاني جيدا هو إن هذا القرآن لا يوجد فيه اختلافا كثيرا مادام أنه من عند الله، فهل يعني ذلك أنه يوجد في القرآن اختلافا قليلا مادام أنه من عند الله؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: ألا تدل الآية الكريمة على احتمالية وجود الاختلاف القليل في القرآن مادام أنه من عند الله؟

المنطق المفترى على صيغة تساؤل: إذا كنا نحن البشر لا نستطيع أن ننتج قرآنا إلاّ ويكون مملوءً بالاختلاف الكثير، فهل ما أنتجه الإله نفسه كقرآن مفترى من عنده يمكن أن يوجد فيه الاختلاف القليل؟

السؤال القوي جدا: إذا كنا نحن البشر نخطئ كثيرا (عندما ننتج شيئا مكتوبا)، فهل أخطأ الإله قليلا (عندما أنتج هذا القرآن)؟ نحن نسأل فقط (لا تعصب عليّ).

جواب مفترى: لا تغضب عزيزي القارئ على الفور، ولا تجتزئ العبارة من سياقها لتطير بها إلى الناس لتحدثهم من فوق المنابر بما يقوله هذا الزنديق الكبير، وانتظر معنا (إن كنت تستطيع صبرا) لترى كيف أن طرح مثل هذه التساؤلات (بالرغم من شدّة وقعها على الأسماع) لن تفضي إلى الكفر، وإنما إلى الوصول الحقائق بإذن الله ومشيئته. فالسكوت على العلل لن يغير الحال.

السؤال: كيف يمكن الخروج من هذا المأزق الذي وضعنا به أنفسنا عندما حاولنا تدبر هذه الآية الكريمة:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: 82]

التساؤلات

⇐ ما هي الاختلافات التي يمكن أن نجدها لو أن هذا القرآن كان من عند غير الله؟
⇐ ما هي الاختلافات القليلة التي يمكن أن نجدها مادام أن هذا القرآن من عند الله؟
⇐ كيف يمكن أن نجد اختلافات قليلة بما هو من عند الله (كالقرآن)؟
⇐ هل يدعو ما نجده من تلك الاختلافات القليلة في القرآن إلى الريبة والتشكك بمصدر هذا الكتاب العظيم؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أن إشكالية الفهم لهذه الآية الكريمة، والمعضلة في الاستنباطات التي يمكن الخروج بها من منطوق الآية نفسها ربما تتمحور جميعها حول مفردة واحدة فيها، وهي مفردة "لَوَجَدُواْ". فكيف يكون ذلك؟

جواب مفترى متناقض: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون في هذا القرآن اختلافا، كثيرا كان أم قليلا، ولكننا نثبت احتمالية أن نجد فيه اختلافا قليلا - انتهى.

ألا ترى أنك قد جننت – يا رجل؟ ألا ترى أنك تهذي؟ كيف تنفي أن يكون في القرآن أي اختلاف (قليلا كان أم كثيرا) وتؤكد في الوقت ذاته أنه يمكن أن نجد فيه اختلافا قليلا؟ أليس هذا هو التناقض بعينه؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأن المشكلة ليست في القرآن ولكنها فينا نحن من نتدبر القرآن. لذا يجب أن نفرق بين ما هو كائن في القرآن فعلا، وما نجده نحن في القرآن. وشتان بين هذا وذاك.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو جاءت الآية الكريمة على النحو التالي:

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لكان فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا

لربما أقررنا على الفور بالوجود الفعلي لبعض الاختلافات القليلة في القرآن نفسه. ولكن لما كانت الآية على النحو التالي:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: 82]

فإن المشكلة إذن تكمن فينا نحن من سنجد في القرآن اختلافات قليلة، وليست المشكلة في القرآن نفسه لأن القرآن نفسه يخلو تماما من الاختلافات بغض النظر عن حجمها.

السؤال: كيف إذن يمكن أن نفهم هذه الآية الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فهمنا لهذه الآية الكريمة هو على النحو التالي:

⇐ لو كان هذا القرآن من عند غير الله، لوجدنا نحن البشر فيه اختلافا كثيرا، أي لأصبح كل واحد منا (بغض النظر عن درجة علمه فيه، وبغض النظر عن قناعته فيه) يستطيع أن يجد الكثير من هذه الاختلافات في النص نفسه، لأن التناقضات أو لنقل الاختلافات (بين آياته) ستكون واضحة جدا لكثرتها. فلو أعطيتني كتابا من تأليف بشري لاستطعت أن أنقده (من النقد) بكل يسر وسهولة، لأن الهفوات والزلات ستكون كثيرة، ولأن كثيرا من مكوناته ستخالف بعضها بعضا مادام أن الكتاب صناعة بشرية. ولو أعطيت الكتاب نفسه لزميل آخر لي لربما استطاع أن يضيف الكثير لما وجدته أنا من تلك الاختلافات، وهكذا. وسيبقى هذا الكتاب محل نقد مهما تعاقبت الأجيال وبعد الزمان. والمتمرس في مناقشات الرسائل الجامعية يستطيع أن يتصور ذلك بكل يسر وسهولة.

⇐ بالمقابل، مادام أن هذا القرآن هو مفترى من عند الله، فلن يستطيع الكثيرون أن يجدوا فيه الاختلاف الكثير. ولكن بالرغم من ذلك، فقد يجد البعض (خاصة المتدبر لكتاب الله) بعض الاختلافات القليلة التي يظن أنها موجودة في النص نفسه. وهنا تكمن – في ظننا- المعضلة كلها، لأنه يجب عندها أن نطرح التساؤل التالي على الفور: هل هذه اختلافات حقيقية في النص أم أنها اختلافات تظن أنت (من عثرت عليها) أنها موجودة في النص؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التفريق بين الأمرين يدعونا إلى إصدار التحذير التالي على الفور: إذا كنت أنا قد وجدت بعض الاختلاف في هذا القرآن، فهذا لا يعني على الإطلاق أن القرآن فيه اختلاف حقا، لأن هذا ما وجدته أنا، وقد لا يكون اختلافا متى ما استطاع شخص آخر أن يبيّنه لي. وهذا ما سنحاول تقديم الدليل علية مع الأمثلة الفعلية من القرآن على الفور بحول الله وتوفيقه.

قواعد اللغة العربية – طه حسن مثالا

السؤال: كم تغنى الخطباء على المنابر بالتميّز التقعيدي (أو لنقل القواعدي) لكتاب الله؟ ألم تسطّر الكتب وتناقش الرسائل الجامعية التي تغنت بدقة كتاب الله من جوانب صياغته اللغوية؟ ألم يستهلك "إعراب" الكتاب الكريم جهد الكثيرين من أبناء الإسلام؟ ألم تستند أعظم مؤلفات الفكر الإسلامي "كدلائل الإعجاز" – مثلا- على التميّز اللغوي لكتاب الله؟ ألم يتحدى الكثيرون من أهل الإيمان سواهم (من أهل الإلحاد) أن يجدوا الاختلافات الخاصة بقواعد العربية (أهل اللسان الفصيح) في كتاب الله؟ ألم تكن حجتهم أصلا أن هذا القرآن قد نزل متحدّيا العرب (أهل الفصاحة) بلغتهم؟

رأينا المفترى: بعد أن اثبت الله رب العرش العظيم (له الحمد والمنّة) أنه أكثر فصاحة من أبي جهل وأمية بن خلف وسهيل بن عمر وعبد العزى بن عبد المطلب (أبي لهب) كما فهمت من منطق أهل الفصاحة، لا أجد بدا إلا أن أسأل: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من الاختلافات اللغوية؟ هل يسير القرآن كلُه بقواعد العربية فلا يشذّ منه شيء عن تلك القواعد؟

جواب الخطباء من فوق منابرهم: نعم، لأن هذا القرآن الكريم متقن من حيث الصياغة القواعدية.

السؤال مرة أخرى: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من الاختلافات القواعدية؟

جواب المعلمين في صفوفهم على مسامع طلبتهم: نعم، لأن هذا القرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف بك أن تتوقع أن تجد فيه الاختلافات؟ ربما يقول منطقهم!

السؤال مرة ثالثة: هل فعلا يخلو القرآن الكريم من الاختلافات القواعدية؟

جواب طه حسين: كلا. استطيع أن أشير إلى بعض الاختلافات القواعدية في القرآن (نحن نظن أنه سيقول ذلك)

السؤال المطروح على الجميع: ألم يشتهر عن عميد العربية (طه حسين) تلك المقولة المنسوبة إليه التي مفادها أن يعطوه قلما أحمر ليصحح لهم القرآن؟ ألم تقم الدنيا فوق رأس الرجل وما قعدت حتى الساعة عندما سمع منه البعض مثل هذه المقولة (إن صحت الرواية طبعا)؟

المعضلة: بالرغم من تكذيبهم دعوى طه حسن تلك، ألم يعقد الأزهر (ومن هم على شاكلته) المؤتمرات تلو المؤتمرات للرد على "الشبهات" (بمفرداتهم) التي أثارها طه حسن؟ ألم يصبح طه حسن مثالا للكفر والزندقة والإلحاد على منابر الخطباء المدافعين والمنافحين عن عقائد آبائهم وأجدادهم؟ لكن بالرغم من ارتفاع الصوت، هل توقفت المؤتمرات العلمية التي يشارك فيها أهل الدين جنبا إلى جنب مع أهل اللغة للنظر (ولإيجاد تخريج) لما خالف من القرآن قواعد اللغة أن تعقد حتى يومنا هذا؟

المطلوب: بالرغم من هذه الجعجعة التي نظن أنها لم تنتج طحنا في يوم من الأيام بعد، ألا يبقى التساؤل قائما: هل نستطيع أن نجد في كتاب الله الاختلافات في القرآن الخاصة بقواعد العربية؟ ألا نستطيع بكل يسر وسهولة أن نرصد الأمثلة على تلك الاختلافات؟

جواب: نعم نستطيع ذلك. ولكن يجب التنبيه في هذا السياق إلى أمرين أثنين

⇐ أن هذه الاختلافات ليست كثيرة بل هي قليلة، فالصبغة الغالبة على النص القرآني هي الانضباط اللغوي الدارج، ولكن هناك بعض الأمثلة (على قلتها) التي تخالف هذا الانضباط

⇐ لن يستطيع الكثيرون أن يجدوا (أو العثور على) هذه الاختلافات، لأن ذلك من الدقة بمكان ما يجعلها الشغل الشاغل للمتخصص العارف بخبايا الأمور. ومن هنا جاء تحذير أهل الدين (نحن نظن) من إثارة مثل هذه القضايا بين الناس لأن ذلك يقع (في ظنهم) في باب إثارة الشبهات. ولكني أخشى أن يكون ديدنهم في ذلك هو مسلك العلماء من أهل الكتاب كما تصوره الآية التالية أحسن تصويرك

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

رأينا: لمّا كانت عقيدتنا نحن تتمثل في أن ليس في دين الله ما يمكن أن يثير شبهة، كانت منهجيتنا تلزمنا أن نضع كل شيء على طاولة النقاش، فلا نخفي أو نبدي ما نريد فقط، ومتى نريد فقط، بل يجب أن نبدي كل شيء، ونطرح حوله كل التساؤلات التي يمكن أن تخطر على قلب بشر قبل أن يطرحها غيرنا على مسامعنا فيأخذنا على حين غرة فلا نستطيع أن نرد بما يجب (كما يفعل أبطال البرامج الدينية من سادتنا العلماء أهل الدراية والرواية على الفضائيات المملوكة لأهل العهر والخلاعة). والحالة هذه، يجب (نحن نظن) أن نبدي للناس كل ما ظن أهل الدراية من قبلنا أن من الأفضل إخفاءه حتى لا يحدث بلبلة في قلوب العالمين حول الدين، وبكأن ظنهم أن إبداء هذه الأمور للعامة سيلحق الأذى بهم وبعقيدتهم. ولكن ظننا أن التفكر في كل هذه "المشاكل" التي أشكلت على الناس قرونا من الزمن بطريقة علمية واضحة السبيل والهدف سيؤدي بحول الله وتوفيقه إلى تجليتها وإزالة الشبهة عنها، عندما يبين صحيحها من سقيمها، فيمكث ما ينفع الناس ويذهب الزبد جفاء، لأن الله – لا محالة- متم نوره ولو كره المجرمون.

فالله وحده نسأل أن يهدينا إلى نوره الذي ابى إلا أن يتمه

أما بعد،

نحن نفتري القول بأنه لمّا لم يتمكن أهل الدراية من معرفة كيفية الخروج للناس بتفسيرات مرضية حول هذه القضايا "الشائكة"، آثروا السكوت عليها، لا بل ظهر الكثير منهم ليحذر العامة من الخوض فيها، أو حتى الاستماع لمن يخوض فيها. وإن أنت أردت الدليل على زعمنا هذا، فحاول - عزيزي القارئ - بعد الانتهاء من قراءة هذه المقالة أن تثير بنفسك بعض هذه القضايا التي سنتعرض لها بين الناس، وسترى بأم عينك ردة الفعل عندهم على ذلك.

مثال

حاولنا في الجزء الخامس من مقالتنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور أن نرصد بعض الأمثلة على هذه الاختلافات اللغوية في كتاب الله، ولا نجد ضيرا أن نعيد بعضها هنا، والقصد هو تبيان كيف أن هذه اختلافات وإن وجدناها نحن في كتاب الله إلا أنها (ربما سيبين لنا لاحقا بإذن الله إن هو أذن لنا الإحاطة بشيء من علمه) ليست في الحقيقة اختلافات فعلية في كتاب الله. ولكن لكي يبين لنا ذلك، فلابد بداية من عرضها، ثم محاولة النظر فيها على اختلاف أنواعها بمنظور ربما سيبدو جديدا، قد يغيّر طريقة التفكر فيها.

بداية، لابد من الإشارة إلى أن هذه الاختلافات اللغوية التي وجدناها في كتاب الله متنوعة، فهي صرفية، ونحوية، وإملائية، وإنشائية، وخبرية، الخ. وانظر – إن شئت- فيما وضعنا تحته خطا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف:82]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ [آل عمران: 147]

- ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 34-35]
- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: 25]
- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 114]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: 128]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: 89]
- ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]
- ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ

رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ [الحج: 19]

- ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: 21-22]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: 52]

- ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه:63]
- ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: 10]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:20]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: 69]
- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162]
- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: 74]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى

ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: 59]

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: 54]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل: 12]
- ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: 32]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: 6]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]
- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]
- ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: 17-23]

السؤال: أليست هذه بعض الاختلافات التي نجدها في كتاب الله؟

السؤال: إذا كنا قد وجدنا هذه الاختلافات في كتاب الله، فهل يعني ذلك أنها فعلا اختلافات حقيقية في كتاب الله؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فبالرغم أنها اختلافات وجدناها نحن في كتاب الله إلا أنها ليست اختلافات حقيقية في كتاب الله؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأنها اختلافات بناء على قواعد لغوية صاغها البشر من عند أنفسهم، فالذي وضعوا ما سُمّي بقواعد العربية هم أناس اجتهدوها من عند أنفسهم بناء على مشاهداتهم الخاصة للغة نفسها، وما أن انتهوا من صياغة تلك القواعد حتى انطلقوا ليسقطوها على النص القرآني. ولمّا سلّم الغالبية الساحقة

منا بصحة تلك القواعد التي هي من صناعة البشر، خرج الكثيرون منا بالاستنباط الخاطئ الذي مفاده أن هناك "اختلافات" في كتاب الله، وهي في ظنهم تلك التي لا تتماشى مع قواعدهم التي صاغتها عقول بشرية. والصحيح – في ظننا- أنها ليست أكثر من اختلافات بناء على ما صنعته أيدينا نحن البشر. فمحاكمة النص القرآني (الذي هو صناعة إلهية) بناء على القواعد اللغوية (التي هي صناعة بشرية) هو ما نتج عنه تلك الاختلافات التي وجدناها في النص القرآني. لذا يجب أن يطرح السؤال على النحو التالي: لماذا نسمي هذه اختلافات؟

جواب: لأنها لا تتطابق مع قواعد اللغة.

السؤال الحتمي: ومن الذي وضع تلك القواعد التي سميناها بقواعد العربية؟ أليس نحن البشر من وضع تلك القواعد؟ فمن الذي زعم (كاذبا) أن كان (مثلا) ترفع الأول ويسمى اسمها وتنصب الثاني ويسمى خبرها؟ ألم يدقق من قال ذلك النظر في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 81-82]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147]
- ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 34-35]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: 25]
- ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 114]

ومن الذي أفهمنا أن إنّ (على عكس كان) تنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني فيسمى خبرها؟ أليس هم البشر؟ ألم يكن الأجدر بأهل تلك القواعد أن يمعنوا النظر بما جاء في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: 52]
- ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه:63]

ومن الذي ظن أن الواو تجعل ما يسبقها تابعا لما يلحقها في الحركة الإعرابية؟ ألم يكن الأجدر بهم أن يدققوا في الآيات الكريمة التالية أكثر قليلا؟

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]
- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]
- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة: 74]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: 59]

ومن الذي صاغ قواعد المبتدأ والخبر؟ ألم يكن الأجدر به أن يدقق في كلام الله كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]
- ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ [سبأ:6]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر:31]
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]

ومن الذي فرّق بين إعراب المفردة والمحل الإعرابي للجملة؟ ألم يكن جديرا به أن يمعن التفكر في الاختلاف الظاهري في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذاريات:24-25]

ومن الذي ميّز بين المذكر والمؤنث بأدوات تذكير وتأنيث؟ فكيف له أن يخرجنا من المأزق الذي وجدنا به أنفسنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]

ومن الذي صاغ قواعد الضبط الإملائي الخاص بالتأنيث؟ فهل تستقيم قواعده مع ما جاء في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران:35]
- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء:128]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]
- ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: 61]

ومن الذي وضع قواعد الإفراد والتثنية والجمع؟ ألم يكن الأجدر به أن يتأنى قليلا، فينظر مليّا في الآيات الكريمة التالية قبل تسطير ما ظن أنها قواعد للغة القرآن الكريم؟ ألا يحق لنا إذا أن نعتقد جازمين أن تلك القواعد التي هي من صناعة أيدينا قد أوقعتنا فعلا في متاهات لاحقا صعب على الكثيرين منا الخروج منها سالمين؟

- ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19]
- ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 21-22]

ومن الذي...؟

ومن الذي...؟

الخ.

المخرج: غالبا عندما تثار هذه القضية على مسامع الناس، تجد أن الأغلبية الساحقة من المستمعين (غير المنصتين) يصلون فورا إلى الاستنتاج الخاطئ من تلقاء أنفسهم بأن في كلامنا هذا تشكيك بكتاب الله نفسه، ويكأن لسان حالهم يقول: أنت إذن تظن أن هذا الكلام (أي ما في القرآن) ليس من عند الله؟! ولشدة وقع الأمر على أسماعهم، غالبا ما تُحرم الفرصة حتى في متابعة النقاش لتوضيح مراد الكلام قبل الخروج باستنباطات خاطئة لا تمت بصلة إلى مقصد القول الذي نحاول تبيانه. فما المخرج إذن؟

رأينا المفترى: نحن ندعو كافة الناس (عالمهم ومتعلمهم) إلى النظر إلى الأمر بصورة معكوسة تماما: فبدل أن تظن أن هناك مشكلة في كتاب الله، فيجب أن تستنبط على الفور بأن المشكلة الحقيقية هي في تلك القواعد التي هي من صناعتنا نحن البشر. فنحن من كتب تلك "البضاعة المزجاة" المسماة بالقواعد، ثم ما تلبث يسيرا حتى أسقطها على كتاب الله، ولسان حاله يقول بأن هذه هي القواعد التي يسير عليها الكلام (كل الكلام) الذي جاء في هذا الكتاب الكريم. ومع مرور الزمن، وثق الناس بهذه القواعد حتى أنزلوها قدسية النص القرآني نفسه. فإن أنت حاولت أن تتشكك في تلك القواعد، فكأنما (لسان حالهم يقول) شككت في كتاب الله نفسه.

رأينا: نحن نرى أن هذه خدعة كبيرة انطلت على الأمة بأكملها لقرون من الزمن، لذا لابد من التوقف فورا عن ذلك، وعكس الصورة تماما، لإعادة النظر في تلك "البضاعة المزجاة" بواحدة من طريقتين لا ثالث لهما:

⇐ إعادة النظر في تلك القواعد لتنقيتها من الشوائب، بما يتلاءم مع كل ما جاء في كتاب الله. فبدل أن نضع قواعد من عند أنفسنا ثم نسقطها على كتاب الله، فالأولى بنا (نحن نظن) أن نقرأ أولا كل ما في كتاب الله ثم نحاول صياغة تلك القواعد (إن استطعنا) بطريقة لا ينقضها الدليل والمثال من كتاب الله.

⇐ ترك تلك القواعد بكليتها وتدبر كتاب الله بعيدا عنها

موقفنا المبدئي: نحن نظن أننا سنسلك الطريق الثاني، حتى وإن كلفنا ذلك التخلي عن الموروث بأكمله، فالتوقف عن الخطأ أفضل من التمادي فيه. فلا يجب أن نركب رؤوسنا إن كنا مخطئين، ولا يجوز أن نحلف برؤوس آبائنا إن لم نكن سالكين جادّة الصواب. لأن ذلك لا يكون إلا سلوك الإعرابي (ولا أعرف العلاقة بين الإعرابي في أصله والإعراب في اللغة) الذي فقد طريقة في وسط الصحراء، وبدل أن يرجع إلى الوراء ليتلمس معالم الطريق من جديد حلف برأس أبيه وتابع مسيره إلى المجهول.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن لا نظن أبدا أن الله هو من قال لنا بأن "كان وأخواتها" ترفع الأول وتنصب الثاني، ولا أظن أن الله قد أنبنا بأن "إن وأخواتها" تعمل العكس تماما، ولا أعتقد أن الله هو من ألزمنا بأن حرف الواو يجعل المعطوف تابعا للمعطوف عليه في الحركة الإعرابية، ولا ... ولا ...، الخ.

القضية الأخطر: لم يتوقف "التهريج" عند هذا الحد، بل لقد ظهرت المؤلفات التي اشتغلت بما يسمى بعلم "الإعراب" فأجازت ما سمّوه (ظلما لأنفسهم) الزيادات في كتاب الله، فبعض الأحرف الواردة في كتاب الله، هي عندهم زائدة، وبعضها لا محل لها من الإعراب، وهكذا. ولينظر المجادل في الأدب المتوافر حول هذا الموضوع عند أهل الاختصاص.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أن هذه "التخريفات" كانت صنيعة من ظنوا أنهم قد امتلكوا ناصية الحقيقة، فوضعوا "القواعد" لكلام أبائهم وأجدادهم، وأقحموا كلام الله في تلك المهاترات، وكانت الطامة على رؤوسنا أنهم أجبروا النص القرآني للخضوع لقواعدهم المفتراة من عند أنفسنا، فظهر في النص القرآني ما يخالف تلك القواعد، فكانت في ظن الكثيرين اختلافات في النص القرآني وهي في الحقيقة ليست أكثر من اختلافات وجدوها في النص القرآني والنص القرآني منها (نحن نفتري الظن) براء:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: 82]

المعضلة: نحن نرى أن المعضلة قد بدأت عندما لم يجعلوا القرآن الكريم حكماً على قواعدهم التي صاغتها عقولهم. فبدل أن يجعلوا القرآن الكريم حكما على تراثهم، جعلوا تراث أبائهم وأجدادهم حكماً على كتاب الله – وشتان بين هذا وذاك. السؤال لماذا؟

رأينا: لأن القرآن كلام مفترى من عند الله بينما القواعد هي أقوال مفتراة من عند أنفسهم

السؤال: ما الفرق بين ما هو مفترى من عند الله (كالقرآن) وما هو مفترى من عند أنفسنا (كالقواعد)؟

باب: القرآن كلام مفترى

لا شك أن جملة كهذه ستقيم الدنيا فوق رؤوسنا وقد لا تقعدها لو أنها اجتزءت من سياقها، وطار بها سارقها ليحدث الناس بها بناء على فهمه هو لها. وقد لا تطيق أسماع الحاضرين لجلساته الليلة من محبيه المنافحين عن عقائد آبائهم وأجدادهم سماع مثل هذه العبارات، فهي أكبر – في ظننا- من قدرتهم على التحمل، فهؤلاء قوم لن يستطيعوا معنا صبرا، وهم اللذين نطلب منهم أن لا يحملوا كلامنا محمل الجد، وأن يأخذونا (كما نقول بالعامية) على قد عقولنا. أما للذين يستطيعون صبرا على مثل هذا الكلام، فسنحاول أن نسوق المثال لتبيان مراد قولنا المفترى بأن هذا القرآن هو كلام مفترى من عند الله.

السؤال: ما هو الافتراء أولا؟ وما معنى أن يكون الشيء مفترى؟

جواب: لو راجعنا قواميس اللغة العربية جميعها، وألسنة الخطباء والفصحاء من أبناء العربية الذين يُشهَد لهم بأنهم قد امتلكوا ناصيتها، لوجدنا أنهم غالبا ما يربطون مفهوم الافتراء بالكذب، فهم يظنون أن المفترى من القول هو القول الذي فيه الكذب، أليس كذلك؟

رأينا: كلا وألف كلا، نحن نظن أن لا علاقة لافتراء القول بالكذب فيه. فالكلام المفترى ليس كلاما كاذبا أبدا، بل هو كلام حق لا جدال فيه.

الدليل

نحن نظن أن الدليل على ذلك يأتي من الآيات الكريمة الكثيرة التي تفرق بين الكلام المفترى من جهة والكلام المفترى كذبا من جهة أخرى، فهناك العديد من الآيات القرآنية التي تورد لفظ الكذب مصاحبا لمفردة الافتراء (ومشتقاتها)، لو كان الافتراء بحد ذاته ينطوي على وجود الكذب فيه لأصبح ذلك من باب حشو الكلام، وانظر – إن شئت- في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾ [آل عمران: 94]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: 144]
- ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37]
- ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]
- ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]
- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ [الكهف: 15]
- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61]
- ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨﴾ [المؤمنون: 38]
- ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8]
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى: 24]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: 68]

السؤال: لم جاءت مفردة الافتراء مصاحبة لمفردة الكذب في جميع هذه السياقات القرآنية (**افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**)؟

رأينا المفترى: لو كان الافتراء بحد ذاته يحمل في ثناياه معنى الكذب، فلا أظن أن هناك ضرورة لأن ترد مفردة الكذب مصاحبة لها (**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ**)، فما الداعي أن تأتي مفردة الكذب مصاحبة لمفردة الافتراء في جميع هذه السياقات القرآنية إن كان الافتراء يحمل في ثناياه معنى الكذب؟ ألا يكفي عندها أن ترد مفردة الافتراء لوحدها؟ نحن نتساءل.

رأينا: نحن نظن أن الافتراء لا يحمل معنى الكذب إلا إذا جاءت مفردة الكذب مصاحبة لها كما في جميع السياقات السابقة، وانظر - عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة من هذا الجانب:

- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105]

نتيجة: مادام أن هناك من يفتري الكذب، فلابد أن هناك من يفتري القول فقط، أليس كذلك؟

السؤال: وهل هناك سياقات قرآنية ترد فيها مفردة الافتراء غير مصاحبة لمفردة الكذب؟

جواب: انظر الآية الكريمة:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: 43]

لاحظ كيف أن مفردة الافتراء قد جاءت مصاحبة لمفردة الإفك، الذي هو أصلا (نحن نظن) اتهام الآخرين بالباطل.

السؤال: وهل جاءت مفردة الافتراء لوحدها؟

جواب: انظر الآية الكريمة التالية جيدا:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48]

ألا تدل هذه الآية الكريمة أن الكاذب هو من يفتري الكذب، ولكن من يفتري القول فهو ليس بكاذب؟ وإلاّ لما كان لهؤلاء الفئة من الناس الذين يفترون الإثم مشكلة تذكر، لأن الإثم سيكون غير موجود أصلا مادام أنه قد جاء من باب الكذب في القول. لأن قولهم يصبح حينها من باب قولهم الكذب الذي لا يقصدونه، فلو كان شركهم الذي جاء من باب الافتراء هو من القول الكاذب، لأصبحت مشكلتهم سهلة لا تستدعي أن لا يغفر الله لهم. لكن لما كان الافتراء (كما نظن) هو قول حق يقصده صاحبه بلفظه، فإن قولهم بالشرك هو من باب القول المقصود لذاته، لذا استحقوا أن لا يغفر الله لهم بسبب فعلتهم تلك لأنهم افتروا (عن قناعة) الإثم العظيم:

- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [البقرة: 225]

ولكني أظن أن هذا ليس دليلاً قطعيا على صحة ما نزعم، أليس كذلك؟ فهل هناك سياقات قرآنية أخرى يمكن الاستدلال من خلالها على صحة ما نقول؟

جواب: انظر السياقات القرآنية التالية التي تتحدث عن ما قاله المشركون بحق النبي محمد وعلاقته بكتاب الله:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود: 13]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾ [هود: 35]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ [الأحقاف: 8]

السؤال: هل يعتقد المشركون أن ما جاء به محمد هو كلام كاذب؟

رأينا: كلا وألف كلا، لو كان كذلك، لما كانوا بحاجة أن يتحدثوا عن مصدر ذلك الكتاب، لأن مشكلة المشركين هنا في ظننا تكمن في مصدر ذلك الكتاب، وليس بما جاء فيه، فهم يظنون أن هذا الكلام هو من صنع محمد نفسه، لذا فهم يظنون أن محمدا هو من افترى ذلك الكلام. لذا جاء دفاع محمد عن نفسه بنص القرآن نفسه على النحو التالي:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾ [هود: 35]

وقد كان جلّ جهد المشركين منصبا على أن يقنعوا محمد بأن يفتري كلاما غير الذي يأتيه من عند ربه:

- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ [الإسراء:73]

والآن حاول – عزيزي القارئ- أن تربط هذه الآية الكريمة السابقة بالآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [يونس: 15]

نتيجة: يحاول المشركون أن يقنعوا محمدا بأن يأتيهم بقرآن غير هذا أو أن يبدل هذا القرآن، فهم يريدونه أن يفتري الكلام من تلقاء نفسه (ولكنهم بالتأكيد لا يطلبون منه أن يكون كلامه الجديد المفترى فيه الكذب).

فهل يستطيع محمد أن يفتري هذا القرآن من تلقاء نفسه؟

جواب، كلا، فـ لكي يستطيع محمد أن يفتري هذا القرآن فلابد له من مساعدة خارجية، فمن الذي ساعد محمد أن يفتري هذا القرآن؟

جواب مفترى: الله هو من ساعد محمدا حتى استطاع محمد أن يفتري هذا القرآن. كلام خطير جدا جدا. فأين الدليل على ما تفتريه من قول؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تقدم لنا الدليل (حسب فهمنا لها بالطبع) على أن هذا القرآن هو كلام مفترى، فانظر – عزيزي القارئ- السياق جيدا:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

ألا تدل هذه الآية الكريمة - عزيزي القارئ – على أن القرآن هو فعلا كلام مفترى، ولكن من الذي افترى هذا القرآن، أليس محمد هو من افتراه بتأييد من ربه (وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ)؟ وهل يستطيع محمد أن يكذب القولَ فيه في ضوء ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: 40-46]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن محمد كان يفتري القول (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)، ولكن قول محمد كان يختلف عن قول الشعراء (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) أو قول الكهنة (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)، لأنه كان يتنزل إليه من ربه (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)، ولم يكن محمد يستطيع أن يضيف فيه شيء من عنده (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)، لأن النتيجة ستكون وخيمة جدا (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46))

السؤال: ما معنى الافتراء إذن؟ وكيف يختلف القول المفترى عن القول المفترى كذبا؟

رأينا: نحن نظن أن القول المفترى كذبا هو القول الذي فيه الكذب، وهو الذي يكون قائله قد قصد (عن نية مسبقة) تمرير معلومة كاذبة غير صادقة، لذا فالمتكلم يعلم في قرارة نفسه أن ما يقوله ليس صحيحا وأن الهدف من ذلك هو تشويه الحقيقة أو التغطية عليها. فيكون بذلك قد افترى كذبا.

أما من يفتري القول فقط، فهو الذي يقول المعلومة وهو مصدّق لما فيها، ويظن أن ما جاء فيها صحيحا، ويكون غرضه إيصال الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. ولكن هذا لا ينفي احتمالية أن تكون المعلومة بحد ذاتها خاطئة، فقد أفتري أنا قولا (ظانا ومؤمنا أن ما أقوله صحيحا)، فيتبين بعد ذلك أنه لم يكن كذلك، ويتبين خطأه بالدليل القاطع، لذا فإن صحة المعلومة أو خطأها ليست ركنا أساسيا في القول المفترى ولكن ما هو أساسي في افتراء القول هو قصد (ولنقل نيّة) المتكلم فقط، فمادام أن المتكلم يصدّق كلامه ولا يقصد به تشويه الحقيقة أو إخفاء شيء منها، فكلامه يأتي من باب افتراء القول، ولا يندرج في باب القول المفترى كذبا إطلاقا.

ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو وضع الكلام للاختبار والتدليل عليه بالبرهان، فالكلام المفترى هو الكلام الذي يمكن اختباره لإثبات صحته أو خطأه بالبرهان، فعندما أقول أنا قولا ما، وأكون مقتنعا بصحة ما أقول، فإن ذلك يقع في باب افتراء القول (ولكنه ليس من باب افتراء الكذب مادام أني لا اقصد الكذب فيه). و يمكن أن تقول أنت أيضا قولا آخر مختلفا تماما، وتكون مقتنعا بصحته فيكون كلامك أيضا من باب افتراء القول (ولكنه ليس من باب افتراء الكذب مادام أنك لا تقصد الكذب فيه). وربما يكون قولي (ما قلت أنا) وقولك (ما قلت أنت) متعاكسان تماما (بالضبط كما في حالة الجدال العلمي الذي يحصل بين أهل الاختصاص)، فكيف يمكن فض الخلاف بيننا؟

جواب: بالدليل، فعندما يحدث صراع فكري بين أهل العلم، يقدم كل طرف قوله في المسألة، ظانا بصحة ما يقول، فيدافع عنه بكل ما أوتي من علم، ولكن الغلبة تكون – في نهاية المطاف- لمن يقدم البرهان على صحة ما يقول. فمن يستطيع تقديم الدليل على إثبات صحة قوله (أو ربما تقديم الدليل على إبطال قول خصمه)، فهو الذي يجب أن تكون له الحجة على خصمه، أليس كذلك؟

السؤال: وهل ينطبق مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا على القرآن الكريم؟

جواب: نعم، نحن نظن أن هذا المنطق يمكن أن يطبق على القرآن الكريم نفسه، ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نظن أن الإله هو إله، وهو يسأل ولا يسأل، أليس كذلك؟

- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: 23]

ولكن بالرغم من ذلك، هل قال الله لنا في كتابه الكريم أن هذا القرآن هو كلامه، ومادام كذلك فهو صحيح، ويجب علينا أن نأخذه حتى دون دليل؟ وبكلمات أخرى نقول: هل استخدم الله نفوذه كإله وطلب من الناس الانصياع لأمره والأخذ بقوله دون الحاجة إلى الدليل؟

جواب: كلا وألف كلا، هذه ليست منهجية الإله، ولكن منهجيته تلخصت في أمرين أثنين، أولهما أنه قدم بنفسه الدليل على صدق ما يفتري من قول، ويلخص ذلك حسب ظننا قوله تعالى:

- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان: 33]

وثانيهما أنه تحدى الجن والإنس أن يقدموا الدليل الذي يمكن أن ينقض كلام الإله نفسه، كأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود: 13]

أو أن يجمعوا أمرهم ليأتوا بمثله:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: 88]

ونحن نظن أن هذا النهج الإلهي هو ما تلخصه (حسب فهمنا) الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ [الأنبياء: 24]
- ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل: 64]

نعم، قُلْ (هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)،إن من أراد أن يثبت أن كلام الله غير صحيح فعليه أن يقدم الدليل على صحة ما يقول (أي البرهان).

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن القول المفترى هو القول الصحيح الصادق الذي لا يمكن أن ينقض إلا بالبرهان، فمن يملك البرهان هو الذي يستطيع أن يثبت أو أن ينفي صحة القول المفترى. وما لم يثبت بطلان القول المفترى بالبرهان يبقى صحيحا لا جدال فيه.

نتيجة: وبهذا المنطق المفترى نقول: مادام أنك لا تملك الدليل على إثبات بطلان القرآن الكريم يبقى القرآن هو كلام مفترى، افتراه محمد (ليس من تلقاء نفسه) ولكن بتأييد إلهي:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس: 37]

ومما لا شك فيه عندنا أن كلا يفتري على قدره، فأنا أفتري القول ولكن هذا لا ينفي أن لي حدود في العلم لا أستطيع أن أتجاوزها، وكذلك هي الحال بالنسبة للبشر جميعا، فيبقى لكل واحد منا حده الذي لن يتجاوزه مهما بلغ علمه:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

فمادام أن فوق كل ذي علم عليم، تبقى الفرصة مهيأة أن نخطئ فيما نفتري من القول وإن لم نكن نقصد الكذب فيه.

ولكن عندما يأتي افتراء القول من عند الإله نفسه، فهل هناك علما يمكن أن يتجاوز علم الإله نفسه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: 122]

أليس قول الإله هو الحق بعينه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: 73]

وهل هناك بعد الحق إلا الضلال:

- ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: 32]

نتيجة مهمة جدا جدا: إن كلام الله (أي القرآن) هو كلام مفترى وذلك لأنه يمكن أن يمحّص بالدليل وبالبرهان، ولكن ذلك البرهان أو الدليل سيفضي بلا شك إلى نتيجة واحدة وهي أن قول الله صحيح صادق لا كذب فيه.

ولكن كلام البشر ينقسم إلى قسمين:

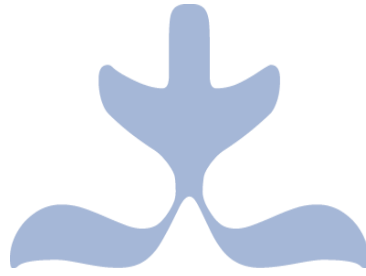
⇐ كلام مفترى وهو الكلام الذي يكن صاحبه يقصد الكذب فيه. فهذا كلام مفترى حتى لو ثبت خطأه

⇐ كلام مفترى كذبا وهو الكلام الذي أسس على الباطل عن قصد وسبق إصرار من مؤلفه

السؤال: ما علاقة حديث الإفك في ذلك؟ وما دخل حديث الإفك بكل هذه التخريصات التي تعرضت لها في هذا الجزء من المقالة؟ هل هناك من رابط بين ما افتريت من قول وما حصل فعلا على أرض الواقع في حديث الإفك؟

جواب: وأنا شو بعرفني! لننتظر الجزء القادم لنرى.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب، وأن ينفذ أمره بمشيئته وإرادته لنا بالإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو الواسع العليم



حديث الإفك

الجزء الثالث

لماذا كانت عائشة هي المقصودة بالإفك؟



الجزء الثالث: لماذا كانت عائشة هي المقصودة بالإفك؟

حاولنا في الجزء الأول من هذا الكتاب تسويق عقيدتنا التي مفادها استحالة أن يخالف النبي الكريم ما أنزل إليه من ربه، لذا فهو قد خطب وعزم عقدة النكاح ونكح ومس من الإناث من بلغت سن النكاح، وهي من أصبحت في عداد النساء، لأن الأنثى لا تصبح من النساء (نحن نفتري القول) إلا بعد أن تصل مرحلة المحيض، وتبقى كذلك حتى بعد أن تيئس منه، كما فهمنا ذلك من صريح اللفظ في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]
- ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: 4]

لننفي بالدليل القرآني (نحن نظن) التهمة التي ألقيت جزافا على النبي الكريم بنكاح الأطفال، وذلك لأنّ محمدا ما كان ليخطب مَنْ لمْ تكن من النساء مادام أن الأمر الإلهي بالخطبة جاء محصورا فقط بمن كانت من النساء:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:235]

وما كان ليعزم عقدة النكاح على مَنْ لم تكن من النساء مادام أن النكاح بحد ذاته جاء محصورا بمن هي من النساء:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء: 3]

وما كان ليلامس مَنْ لم تكن من النساء مادام أن الملامسة جاءت محصورة بالنساء:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: 43]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: 6]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أنه عندما خطب النبي الكريم عائشة كانت من النساء، وعندما عزم عقدة النكاح على عائشة كانت من النساء، وعندما لامسها كانت قد بلغت مبلغ النساء بالمحيض واللباس والعورة.

لكن، حصل بعد زواج النبي الكريم بالسيدة عائشة حديث الإفك الذي سبب فوضى عارمة في مجتمع المدينة الناشئ. فأشكل الأمر حينئذ على المؤمنين فترة من الزمن (قرابة الشهر حسب روايات سادتنا أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الرواية)، فبقيت السيدة عائشة هي حديث أهل المدينة طوال تلك الفترة من الزمن حتى نزل قول الحق في الآية الكريمة التي بدأنا حديثنا في الجزء الثاني من هذه المقالة بها، وهي قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [النور: 11]

فقطع بذلك ألسنة المتشككين فترة من الزمن، ولكن الخوض في الأمر لم يتوقف كليا، وأسقط البعض التهمة على السيدة عائشة ورفضوا أن يعترفوا بأن آية التبرئة تخصها. ورد الفريق الآخر بالنقيض تماما، وتوسطهم فريق ثالث يدعو إلى عدم الخوض في هذه القضايا. وأصبح ذلك مثار نقاش يحاول البعض طرحه بقوة، ويحاول الآخرون التهرب منه خشية الوقوع في المحظور. لكن الثابت هو عدم استطاعة أي فريق منهم تقديم الدليل الثابت الذي يدعم نظريته أو يدحض نظرية خصومه، ولازال هذا الحديث يلاك في فم أهل العقائد بنفس الأدلة والمسوغات القديمة التي أدت إلى الفرقة والاختلاف في بدايته.

ولمّا كنّا نظن أن النقاش العلمي المؤسس على المرجعية الثابتة (كتاب الله) لابد أن تفضي إلى الحقيقة، حاولنا طرح تساؤل كبير ظننا أن مفردات هذه الآية الكريمة تثيره، وكان التساؤل هو: لماذا نفى الله في هذه الآية الكريمة أن يكون الإفك الذي جاء به عصبة منا شرا لنا (**لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم**)؟ ولماذا جاء التبيان الإلهي في الآية نفسها بأن في ذاك الإفك خير لنا (**بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ**)؟ فكيف يمكن لنا أن نفهم ذلك؟ وهل يمكن أن يجلب الدليل القرآني الذي يساعد في فض الخلاف بأي اتجاه كان؟

رأينا: نحن نظن أن هذا ممكن شريطة أن نلتزم بالدليل سواء كان داعما أو رافضا لموقف أهل العقيدة أو الطائفة التي ننتمي إليها. فليس من العدل أن أقبل الدليل إذا ما دعم موقفي وأن أرفضه إذا اثبت بطلان دعواي. فالأمر ليس انتقائيا، نجلب ما نريده ونترك ما لا نريده، لأن العقائد تصبح حينئذ مسيّرة بالمواقف المسبّقة، وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلا. فأنا على استعداد أن أتخلى عن الخطأ ولا أصر عليه، لأن التمادي في الخطأ من أعظم الذنوب، والإقرار بالخطأ من أبواب التوبة في صالح الأعمال.

فالله نسأل أن نجد الصراط المستقيم الذي هدانا إليه رسوله الكريم، ونعوذ بالله ممن اقسم بعزتك أن يقعد لنا صراطك المستقيم، ونسألك وحده أن تهدينا صراطك المستقيم.

أما بعد،

في محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل الخاص بالخير في حديث الإفك (بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)، كان لابد (في نظرنا) من تسويق جملة من الافتراءات من عند أنفسنا ظننا أنها ستساعدنا بحول الله وتوفيق منه في المهمة التي أقحمنا أنفسنا فيها. فكان الافتراء الأخطر يتمثل في ظننا بأن القرآن الكريم هو كلام مفترى من عند الله، وذلك لأنه كلام يمكن أن تثبته الحجة ويدعمه الدليل الذي سيفضي – بلا شك- إلى صدق القول فيه. ليكون السؤال – بناء على هذا الظن- هو: أين يمكن أن نستقي الدليل من كتاب الله نفسه على التأكيد الرباني بأن حديث الإفك لم يكن شرا لنا بل هو خير لنا (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)؟

أما بعد،

لنبدأ القصة من أولها طارحين التساؤل التالي: ما هو حديث الإفك أصلا؟

جواب: بدأنا بحثنا في هذه القضية بالنبش في بطون أمهات كتب التفسير عن ما جاء فيها عن هذه الآية الكريمة، فوجدنا القصة قد رُويت في الطبري على النحو التالي:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ [النور: 11]

القول في تأويل قوله تعالى : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم لهم عذاب عظيم } يقول تعالى ذكره : إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان { عصبة منكم } يقول : جماعة منكم أيها الناس . { لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم } يقول : لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك شرا لكم عند الله وعند الناس , بل ذلك خير لكم عنده وعند المؤمنين ; وذلك أن الله يجعل ذلك كفارة للمرمي به , ويظهر براءته مما رمي به , ويجعل له منه مخرجا . وقيل : إن الذي عنى الله بقوله : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } : جماعة , منهم حسان بن ثابت , ومسطح بن أثاثة , وحمنة بنت جحش . كما : 19548 - حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد , قال : ثنا أبي , قال : ثنا أبان العطار , قال : ثنا هشام بن عروة , عن عروة : أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان : كتبت إلي تسألني في الذين جاءوا بالإفك , وهم كما قال الله : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } وأنه لم يسم منهم أحد إلا حسان بن ثابت , ومسطح بن أثاثة , وحمنة بنت جحش , وهو يقال في آخرين لا علم لي بهم ; غير أنهم عصبة كما قال الله . 19549 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , عن مجاهد , قوله : { جاءوا بالإفك عصبة منكم } هم أصحاب عائشة . قال ابن جريج

: قال ابن عباس : قوله : { جاءوا بالإفك عصبة منكم } . .. الآية , الذين افتروا على عائشة : عبد الله بن أبي , وهو الذي تولى كبره , وحسان بن ثابت , ومسطح , وحمنة بنت جحش . 19550 - حدثت عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } الذين قالوا لعائشة الإفك والبهتان . 19551 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم } قال : الشر لكم بالإفك الذي قالوا , الذي تكلموا به , كان شرا لهم , وكان فيهم من لم يقله إنما سمعه , فعاتبهم الله , فقال أول شيء : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم } ثم قال : { والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم } . وقوله : { لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم } يقول : لكل امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اجترم من الإثم , بمجيئه بما جاء به , من الأولى عبد الله . وقوله : { والذي تولى كبره منهم } يقول : والذي تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه . كما : 19552 - حدثنا عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { والذي تولى كبره منهم } يقول : الذي بدأ بذلك . 19553 - حدثنا محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء جميعا , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قوله : { عصبة منكم } قال : أصحاب عائشة ; عبد الله بن أبي ابن سلول , ومسطح , وحسان . قال أبو جعفر : له من الله عذاب عظيم يوم القيامة . وقد اختلفت القراء في قراءة قوله : { كبره } فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار : { كبره } بكسر الكاف , سوى حميد الأعرج فإنه كان يقرؤه : " كبره " بمعنى : والذي تحمل أكبره . وأولى القراءتين في ذلك بالصواب : القراءة التي عليها عوام القراء , وهي كسر الكاف ; لإجماع الحجة من القراء عليها , وأن الكبر بالكسر : مصدر الكبير من الأمور , وأن الكبر بضم الكاف : إنما هو من الولاء والنسب , من قولهم : هو كبر قومه ; والكبر في هذا الموضع : هو ما وصفناه من معظم الإثم والإفك . فإذا كان ذلك كذلك , فالكسر في كافه هو الكلام الفصيح دون ضمها , وإن كان لضمها وجه مفهوم . وقد اختلف أهل التأويل في المعني بقوله : { والذي تولى كبره منهم } ... الآية , فقال بعضهم : هو حسان بن ثابت . ذكر من قال ذلك : 19544 - حدثنا الحسن بن قزعة , قال : ثنا مسلمة بن علقمة , قال : ثنا داود , عن عامر , أن عائشة قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان , وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة , قوله لأبي سفيان : هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء أتشتمه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء فقيل : يا أم المؤمنين , أليس هذا لغوا ؟ قالت ; لا , إنما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول : { والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم } قالت : أليس قد أصابه عذاب عظيم ؟ أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ؟ . 19555 - قال : ثنا ابن بشار , قال : ثنا مؤمل , قال : ثنا سفيان , عن الأعمش , عن أبي الضحى , عن مسروق قال : كنت عند عائشة , فدخل حسان بن ثابت , فأمرت , فألقي له وسادة ; فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا وقد قال الله ما قال ؟ فقالت : قال الله : { والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم } وقد ذهب بصره , ولعل الله يجعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره . 19556 -حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا محمد بن أبي عدي , عن شعبة , عن سليمان , عن أبي الضحى , عن مسروق , قال : دخل حسان بن ثابت على عائشة , فشبب بأبيات له , فقال : وتصبح غرثى من لحوم الغوافل فقالت عائشة : أما إنك لست كذلك ! فقلت : تدعين هذا الرجل يدخل عليك وقد أنزل الله فيه

: { والذي تولى كبره } ... الآية ؟ فقالت : وأي عذاب أشد من العمى ! وقالت : إنه كان يدفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم 19557 - حدثني محمد بن عثمان الواسطي , قال : ثنا جعفر بن عون , عن المعلى بن عرفان , عن محمد بن عبد الله بن جحش , قال : تفاخرت عائشة وزينب , قال : فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء . قال : وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة , ما قلت حين ركبتيها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ! قالت : قلت كلمة المؤمنين . وقال آخرون : هو عبد الله بن أبي ابن سلول . ذكر من قال ذلك : 19558 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبو أسامة , عن هشام بن عروة , عن أبيه , عن عائشة , قالت : كان الذين تكلموا فيه : المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول , وكان يستوشيه ويجمعه , وهو الذي تولى كبره , ومسطحا , وحسان بن ثابت . 19559 - حدثنا سفيان , قال : ثنا محمد بن بشر , قال : ثنا محمد بن عمرو , قال : ثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب , عن علقمة بن وقاص وغيره أيضا , قالوا : قالت عائشة : كان الذي تولى كبره الذي يجمعهم في بيته , عبد الله بن أبي ابن سلول . * - حدثنا ابن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن ابن شهاب , قال : ثني عروة بن الزبير , وسعيد بن المسيب , وعلقمة بن وقاص , وعبيد الله بن عتبة , عن عائشة , قالت : كان الذي تولى كبره : عبد الله بن أبي . 19560 -حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : قال ابن عباس : { إن الذين جاءوا } ... الآية , الذين افتروا على عائشة : عبد الله بن أبي , وهو الذي تولى كبره , وحسان , ومسطح , وحمنة بنت جحش . 19561 -حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد , قال : ثنا أبي , قال : ثنا أبان العطار , قال : ثنا هشام بن عروة في الذين جاءوا بالإفك : يزعمون أنه كان كبر ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول , أحد بني عوف بن الخرزج ; وأخبرت أنه كان يحدث به عنهم فيقره ويسمعه ويستوشيه . 19562 - حدثنا يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد : أما الذي تولى كبره منهم , فعبد الله بن أبي ابن سلول الخبيث , هو الذي ابتدأ هذا الكلام , وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت , ثم جاء يقود بها . 19563 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء جميعا , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي ابن سلول , وهو بدأه . وأولى القولين في ذلك بالصواب : قول من قال : الذي تولى كبره من عصبة الإفك , كان عبد الله بن أبي , وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير , أن الذي بدأ بذكر الإفك , وكان يجمع أهله ويحدثهم , عبد الله بن أبي ابن سلول , وفعله ذلك على ما وصفت كان توليه كبر ذلك الأمر . وكان سبب مجيء أهل الإفك , ما : 19564 - حدثنا به ابن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب , ثني عروة بن الزبير , وسعيد بن المسيب , وعلقمة بن وقاص , وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود , عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم , حين قال لها أهل الإفك ما قالوا , فبرأها الله , وكلهم حدثني طائفة من حديثها , وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض , وأثبت اقتصاصا , وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة , وبعض حديثهم يصدق بعضا : زعموا أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه , فأيتهن خرج سهمها خرج بها . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزاة غزاها , فخرج سهمي , فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم , وذلك بعدما أنزل الحجاب , وأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه , فسرنا , حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل إلى المدينة , آذن ليلة بالرحيل , فقمت حين

آذنوا بالرحيل , فمشيت حتى جاوزت الجيش ; فلما قضيت شأني , أقبلت إلى الرحل , فلمست صدري , فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع , فرجعت فالتمست عقدي , فحبسني ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي , فاحتملوا هودجي , فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب , وهم يحسبون أني فيه . قالت : وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلهن ولم يغشهن اللحم , إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه , وكنت جارية حديثة السن , فبعثوا الجمل وساروا , فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش , فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب , فتيممت منزلي الذي كنت فيه , وظننت أن القوم سيفقدونني ويرجعون إلي , فبينا أنا جالسة في منزلي , غلبتني عيني , فنمت حتى أصبحت , وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني , قد عرس من وراء الجيش , فادلج فأصبح عند منزلي , فرأى سواد إنسان نائم , فأتاني , فعرفني حين رآني , وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي , فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني , فخمرت وجهي بجلبابي , والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ! حتى أناخ راحلته , فوطئ على يديها فركبتها , فانطلق يقود بي الراحلة , حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة , فهلك من هلك في شأني , وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول , فقدمنا المدينة , فاشتكيت شهرا , والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك , وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي , إنما يدخل فيسلم ثم يقول : " كيف تيكم ؟ " فذلك يريبني , ولا أشعر بالشر , حتى خرجت بعدما نقهت , فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع , وهو متبرزنا , ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل , وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا , وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه , وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا , فانطلقت أنا وأم مسطح , وهي ابنة أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف , وأمها ابنة صخر بن عامر , خالة أبي بكر الصديق , وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب . فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا , فعثرت أم مسطح في مرطها , فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت أي هنتاه , أولم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك , فازددت مرضا على مرضي , فلما رجعت إلى منزلي , ودخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم , ثم قال : " كيف تيكم ؟ " فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قال : " نعم " . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما , فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم , فجئت أبوي , فقلت لأمي : أي أمتاه , ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت : أي بنية , هوني عليك ! فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر , إلا أكثرن عليها . قالت : قلت : سبحان الله , أوقد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم , فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم , ثم أصبحت , فدخل علي أبو بكر وأنا أبكي , فقال لأمي : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها , فأكب يبكي , فبكى ساعة , ثم قال : اسكتي يا بنية ! فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم , ثم بكيت ليلي المقبل لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم , ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم , حتى ظن أبواي أن البكاء سيفلق كبدي . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد , حين استلبث الوحي , يستشيرهما في فراق أهله ; قالت : فأما أسامة , فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود , فقال : يا رسول الله , هم أهلك , ولا نعلم إلا خيرا . وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك , والنساء سواها كثير , وإن تسأل الجارية تصدقك , يعني بريرة , فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة , فقال :

" هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ " قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق , ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها , أكثر من أنها حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ! فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا , فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله , ثم قال : " من يعذرني ممن قد بلغني أذاه في أهلي ؟ " يعني عبد الله بن أبي ابن سلول , وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر أيضا : " يا معشر المسلمين , من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا , ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا , وما كان يدخل على أهلي إلا معي ! " فقام سعد بن معاذ الأنصاري , فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله , إن كان من الأوس ضربنا عنقه , وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك , فقام سعد بن عبادة , فقال , وهو سيد الخزرج , وكان رجلا صالحا , ولكن احتملته الحمية , فقال : أي سعد بن معاذ , لعمر الله لا تقتله , ولا تقدر على قتله ! فقام أسيد بن حضير , وهو ابن عمة سعد بن معاذ , فقال لسعد بن عبادة : كذبت , لعمر الله لنقتلنه , فإنك منافق تجادل عن المنافقين ! فثار الحيان : الأوس والخزرج , حتى هموا أن يقتتلوا , ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر , فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا , ثم أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في بيت أبوي , فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي , استأذنت علي امرأة من الأنصار , فأذنت لها , فجلست تبكي معي ; قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم , ثم جلس عندي , ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل , وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء ; قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس , ثم قال : " أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا , فإن كنت بريئة فسيبرئك الله , وإن كنت ألممت بذنب , فاستغفري الله , وتوبي إليه , فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه " . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته , قلص دمعي , حتى ما أحس منه دمعة ; قلت لأبي : أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ! قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إني والله لقد عرفت أن قد سمعتم بهذا , حتى استقر في أنفسكم , حتى كدتم أن تصدقوا به , فإن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة , لا تصدقوني بذلك , ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة , لتصدقني , وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : { والله المستعان على ما تصفون } 12 18 ثم توليت واضطجعت على فراشي , وأنا والله أعلم أني بريئة وأن الله سيبرئني ببراءتي , ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى , ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى , ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام رؤيا يبرئني الله بها . قالت : والله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه , فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي , حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك , كان أول كلمة تكلم بها أن قال : " أبشري يا عائشة , إن الله قد برأك ! " فقالت لي أمي , قومي إليه ! فقلت : والله لا أقوم إليه , ولا أحمد إلا الله , هو الذي أنزل براءتي . فأنزل الله : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } عشر آيات , فأنزل هذه الآيات براءة لي . قالت : فقال أبو بكر , وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ! قالت : فأنزل الله : { ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة } 24 22 . حتى بلغ : { غفور رحيم } 24 22

فقال أبو بكر : إني لأحب أن يغفر الله لي , فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه , وقال : لا أنزعها منه أبدا . قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري وما رأت وما سمعت , فقالت : يا رسول الله , أحمي سمعي وبصري , والله ما رأيت إلا خيرا . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني , فعصمها الله بالورع , وطفقت أختها حمنة تحارب فهلكت فيمن هلك . قال الزهري بن شهاب : هذا الذي انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط . * - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن الزهري , وعن علقمة بن وقاص الليثي , عن سعيد بن المسيب , وعن عروة بن الزبير , وعن عبيد الله بن عتبة بن مسعود . قال الزهري : كل قد حدثني بعض هذا الحديث , وبعض القوم كان له أوعى من بعض , قال : وقد جمعت لك كل الذي قد حدثني . وحدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة ; قال : وثني محمد بن إسحاق , قال : ثنا يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير , عن أبيه , عن عائشة . قال : ثني عبد الله بن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري , عن عمرة بنت عبد الرحمن , عن عائشة قالت ; وكل قد اجتمع في حديثه قصة خبر عائشة عن نفسها , حين قال أهل الإفك فيها ما قالوا , وكله قد دخل في حديثها عن هؤلاء جميعا , ويحدث بعضهم ما لم يحدث بعض , وكل كان عنها ثقة , وكل قد حدث عنها ما سمع . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه , فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزاة بني المصطلق , أقرع بين نسائه كما كان يصنع , فخرج سهمي عليهن , فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم معه . قالت : وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق لم يهيجهن اللحم فيثقلن . قالت : وكنت إذا رحل بعيري جلست في هودجي , ثم يأتي القوم الذين يرحلون بي بعيري ويحملوني , فيأخذون بأسفل الهودج يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير , فينطلقون به . قالت : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك وجه قافلا , حتى إذا كان قريبا من المدينة , نزل منزلا فبات بعض الليل , ثم أذن في الناس بالرحيل . فلما ارتحل الناس , خرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي من جزع ظفار , فلما فرغت انسل من عنقي وما أدري ; فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده , وقد أخذ الناس في الرحيل . قالت : فرجعت عودي إلى بدئي , إلى المكان الذي ذهبت إليه , فالتمسته حتى وجدته ; وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون بي البعير . ثم ذكر نحو حديث ابن عبد الأعلى , عن ابن ثور . 19565 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبو أسامة , عن هشام بن عروة , عن أبيه , عن عائشة رضي الله عنها , قالت : لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به , قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا وما علمت , فتشهد , فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله , ثم قال : " أما بعد أشيروا علي في أناس أبنوا أهلي والله ما علمت على أهلي سوءا قط , وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه سوءا قط , ولا دخل بيتي قط إلا وأنا حاضر , ولا أغيب في سفر إلا غاب معي " فقام سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله , نرى أن نضرب أعناقهم ! فقام رجل من الخزرج , وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل , فقال : كذبت , أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم ! حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج في المسجد شر ; وما علمت به . فلما كان مساء ذلك اليوم , خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح , فعثرت , فقالت : تعس مسطح ! فقلت علام تسبين ابنك ؟ فسكتت , ثم عثرت الثانية , فقالت : تعس مسطح ! قلت : علام تسبين ابنك ؟ فسكتت الثانية , ثم عثرت الثالثة , فقالت : تعس مسطح ! فانتهرتها , وقلت : علام تسبين ابنك ؟ قالت : والله ما أسبه إلا فيك , قلت : في أي شأني , فبقرت لي الحديث , فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . قالت : فرجعت إلى بيتي فكأن الذي خرجت له لم أخرج له , ولا أجد منه قليلا ولا كثيرا

. ووعكت , فقلت : يا رسول الله , أرسلني إلى بيت أبي ! فأرسل معي الغلام , فدخلت الدار فإذا أنا بأمي أم رومان , قالت : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها , فقالت : خفضي عليك الشأن , فإنه والله ما كانت امرأة جميلة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا حسدنها وقلن فيها . قلت : وقد علم بها أبي ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ؟ قالت : نعم . فاستعبرت وبكيت , فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ , فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذي ذكر من أمرها . ففاضت عيناه , فقال : أقسمت عليك إلا رجعت إلى بيتك ! فرجعت . فأصبح أبواي عندي , فلم يزالا عندي حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بعد العصر , وقد اكتنفني أبواي , عن يميني وعن شمالي , فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم , فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله , ثم قال : " أما بعد يا عائشة , إن كنت قارفت سوءا أو ألممت فتوبي إلى الله , فإن الله يقبل التوبة عن عباده " . وقد جاءت امرأة من الأنصار وهي جالسة , فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تقول شيئا ؟ فقلت لأبي : أجبه ! فقال : أقول ماذا ؟ قلت لأمي : أجيبيه ! فقالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله , ثم قلت : أما بعد , فوالله لئن قلت لكم إني لم أفعل , والله يعلم أني لصادقة ما ذا بنافعي عندكم , لقد تكلم به وأشربته قلوبكم ; وإن قلت إني قد فعلت والله يعلم أني لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها , وأيم الله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف وما أحفظ اسمه : { فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون } 12 18 . وأنزل الله على رسوله ساعتئذ , فرفع عنه , وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه يقول : " أبشري يا عائشة , فقد أنزل الله براءتك ! " فكنت أشد ما كنت غضبا , فقال لي أبواي : قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلت : والله لا أقوم إليه , ولا أحمده ولا أحمدكما , لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه , ولكني أحمد الله الذي أنزل براءتي . ولقد جاء رسول الله بيتي , فسأل الجارية عني , فقالت : والله ما أعلم عليها عيبا إلا أنها كانت تنام حتى كانت تدخل الشاة فتأكل حصيرها أو عجينها , فانتهرها بعض أصحابه , وقال لها : اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال عروة : فعتب على من قاله , فقال : لا , والله ما أعلم عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ ذلك الرجل الذي قيل له , فقال : سبحان الله ! ما كشفت كنف أنثى قط . فقتل شهيدا في سبيل الله . قالت عائشة : فأما زينب بنت جحش , فعصمها الله بدينها , فلم تقل إلا خيرا ; وأما حمنة أختها , فهلكت فيمن هلك , وكان الذين تكلموا فيه : المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول , وكان يستوشيه ويجمعه , وهو الذي تولى كبره , ومسطحا , وحسان بن ثابت , فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة , فأنزل الله : { ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة } 24 22 . يعني أبا بكر , { أن يؤتوا أولي القربى والمساكين } 24 22 يعني مسطحا , { ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم } 24 22 قال أبو بكر : بلى والله , إنا لنحب أن يغفر الله لنا ! وعاد أبو بكر لمسطح بما كان يصنع به . 19566 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا محمد بن بشر , قال : ثنا محمد بن عمرو , قال : ثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب , عن علقمة بن وقاص وغيره أيضا , قال : خرجت عائشة تريد المذهب , ومعها أم مسطح , وكان مسطح بن أثاثة ممن قال ما قال , وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس قبل ذلك , فقال : " كيف ترون فيمن يؤذيني في أهلي ويجمع في بيته من يؤذيني ؟ " فقال سعد بن معاذ : أي رسول الله , إن كان منا معشر الأوس جلدنا رأسه , وإن كان من إخواننا من الخزرج , أمرتنا فأطعناك . فقال سعد بن عبادة : يا ابن معاذ , والله ما بك نصرة رسول الله , ولكنها قد كانت ضغائن في الجاهلية وإحن لم تحلل لنا من صدوركم بعد ! فقال ابن معاذ : الله أعلم ما أردت , فقام أسيد بن حضير , فقال : يا ابن عبادة , إن سعدا

ليس شديدا , ولكنك تجادل عن المنافقين وتدفع عنهم , وكثر اللغط في الحيين في المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على المنبر , فما زال النبي صلى الله عليه وسلم يومئ بيده إلى الناس ها هنا وها هنا , حتى هدأ الصوت . وقالت عائشة : كان الذي تولى كبره , والذي يجمعهم في بيته , عبد الله بن أبي ابن سلول . قالت : فخرجت إلى المذهب ومعي أم مسطح , فعثرت , فقالت : تعس مسطح ! فقلت : غفر الله لك , أتقولين هذا لابنك ولصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت ذلك مرتين , وما شعرت بالذي كان . فحدثت , فذهب عني الذي خرجت له , حتى ما أجد منه شيئا . ورجعت على أبوي أبي بكر وأم رومان , فقلت : أما اتقيتما الله في وما وصلتما رحمي ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال , وتحدث الناس بالذي تحدثوا به ولم تعلماني فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : أي بنية , والله لقلما أحب رجل قط امرأته إلا قالوا لها نحو الذي قالوا لك ! أي بنية ارجعي إلى بيتك حتى نأتيك فيه ! فرجعت وارتكبني صالب من حمى , فجاء أبواي فدخلا , وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على سريري وجاهي , فقالا : أي بنية , إن كنت صنعت ما قال الناس فاستغفري الله , وإن لم تكوني صنعتيه فأخبري رسول الله بعذرك ! قلت : ما أجد لي ولكم إلا كأبي يوسف { فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون } 12 18 . قالت : فالتمست اسم يعقوب , فما قدرت , أو فلم أقدر عليه . فشخص بصر رسول الله إلى السقف , وكان إذا نزل عليه وجد , قال الله : { إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا } 73 5 . فوالذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب , ما زال يضحك حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورا , ثم مسح عن وجهه , فقال : " يا عائشة أبشري , قد أنزل الله عذرك ! " قلت : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك . قال الله : { إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } ... 24 22 حتى بلغ : { ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة } 24 22 . وكان أبو بكر حلف أن لا ينفع مسطحا بنافعة , وكان بينهما رحم , فلما أنزلت : { ولا يأتل أولوا الفضل منكم } . .. 24 22 حتى بلغ : { والله غفور رحيم } 24 22 قال أبو بكر : بلى , أي رب ! فعاد إلى الذي كان لمسطح { إن الذين يرمون المحصنات } ... 24 23 حتى بلغ : { أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم } 24 26 . قالت عائشة : والله ما كنت أرجو أن ينزل في كتاب ولا أطمع به , ولكن أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا تذهب ما في نفسه . قالت : وسأل الجارية الحبشية , فقالت والله لعائشة أطيب من طيب الذهب , وما بها عيب إلا أنها ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها , ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله ! قال : فعجب الناس من فقهها

تفنيد الفكر السائد

بناء على ما وصلنا في هذه الرواية ومثيلاتها عن قصة حديث الإفك هذا، فإننا نجد أن هناك جملة من التساؤلات لا بد من إثارتها حول هذه الرواية التاريخية للقصة، نذكر منها:

- لماذا جاءت هذه الرواية خاصة بالسيدة عائشة؟
- لماذا لا تذكر القصة التاريخية صراحة أسماء جميع الذين جاءوا بالإفك؟
- لماذا لم تذكر هذه الرواية أسماء إلا ثلاثة منهم؟
- لم لا تجزم القصة التاريخية بخبر الذي تولى كبره منهم؟
- لماذا لا تعرّج القصة (ولو بالتلميح) على سبب سكوت النبي فترة من الزمن؟

⇐ لماذا لا تذكر سبب سكوت أبي بكر عن ما كان يحصل لابنته؟
⇐ لماذا لا تبرر القصة سبب عدم قيام الرسول الكريم بتطبيق الحد على عائشة بمجرد شهادة عصبة من المؤمنين؟
⇐ ولماذا لا تبرر القصة سبب عدم قيام الرسول بتطبيق الحد على اللذين جاءوا بالإفك (أو على الأقل على من عرف منهم) بعد أن ثبتت براءة المرأة من التهمة التي وجهت لها؟ ألم يكن اتهامهم لها يقع في باب قذف المحصنات المؤمنات الغافلات؟
⇐ الخ

جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن حديث الإفك هذا كان موجها ضد ثلاثة أطراف على وجه التحديد، وهم:

1. الرسول نفسه
2. صاحب الرسول الأول أبا بكر الصديق
3. السيدة عائشة نفسها

وأن الذين اشتركوا في الحادثة كانت لهم مصلحة شخصية في انتشار هذا الحديث. لذا ستكون التساؤلات مركزة على (1) هذه الشخصيات التي شاركت في حديث الإفك و (2) المصلحة المرجوة لهم من انتشار هذا الحديث و (3) ماهية الخير الذي يمكن أن يطال المسلمين (كل المسلمين) عندما توجه التهم إلى شخص النبي وزوجه وصاحبه الأول على وجه التحديد. وسنبدأ النقاش بالأقل خطر وهي التهمة ضد عائشة نفسها، ثم ننتقل إلى الأكثر خطرا وهي التهمة ضد أبي بكر الصديق، ثم ننهي النقاش بالتهمة الأخطر على الإطلاق وهي تلك الموجهة ضد النبي نفسه.

باب اتهام عائشة

السؤال الأول: لماذا جاءت القصة خاصة بالسيدة عائشة؟

للإجابة على هذا التساؤل نجد الضرورة تستدعي إلقاء ظلال الشك على ما جاء في تلك الرواية التاريخية حول التساؤل التالي: لماذا كانت عائشة على وجه الخصوص هي من خرجت مع النبي في غزوته تلك؟ لِم لَم تخرج معه أي من زوجاته الأخريات؟

جواب أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية في التفسير السابق هو:

زعموا أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه , فأيتهن خرج سهمها خرج بها . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزاة غزاها , فخرج سهمي , فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

التساؤل: لماذا كان الرسول يقرع بين نسائه؟ ألم يكن يعمل بمبدأ الدور؟ وما بال السهم يخرج على عائشة؟ وماذا لو خرج السهم أكثر من مرة على إحداهن دون الأخريات؟ وهل كان الرسول سيصحب من خرج السهم عليها حتى لو لم تكن هي راغبة في الخروج أو ربما غير قادرة عليه (ربما لتقدم السن بها)؟

رأينا: كلا وألف كلا. نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله وقع السهم على عائشة.

السؤال: لماذا إذن كانت عائشة (كما تقول الرواية) هي من وقع عليها السهم؟

جواب: لأن ذاك كان قرار النبي نفسه. فهو من يتخذ القرار فيمن ستخرج معه من نسائه متى شاء وحيثما شاء.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأنه ليس من الواجب على الرسول الكريم (كرجل متزوج من أكثر من امرأة) أن يعدل بين نسائه. انتهى.

السؤال: وما الواجب عليه إذن؟

جواب مفترى: من الواجب على الرسول الكريم (كرجل متزوج بأكثر من امرأة) أن يقسط بين نسائه.

السؤال: وما الفرق بين العدل بين النساء والقسط بين النساء؟

رأينا المفترى: القسط بين النساء ممكن لأنه يخص الرزق والكسوة، بينما العدل بين النساء مستحيل لأنه يخص كل ما عدا ذلك.

الدليل

بداية لفهم الدليل كما نحاول تسويقه، لابد للقارئ الكريم من الرجوع أولا إلى مقالتنا تحت عنوان تعدد الزوجات 1 و تعدد الزوجات 2. فقد يجد هناك بعض التفصيل في الدليل كما نفهمه. ولكن الحديث سيقتصر هنا على الخطوط العريضة التي وردت في تلك المقالات السابقة والتي نظن أنها ذات علاقة بفحوى النقاش في هذه المقالة الجديدة. والتي نحاول تسطيرها على النحو التالي:

افتراء رقم 1: كان ترتيب عائشة بين زوجات النبي هي الأولى (أو الواحدة). فكيف ذلك؟

رأينا: ما أن تزوج النبي الكريم بعائشة حتى كانت هي الزوجة "الواحدة" التي جاء النص القرآني ليبرزها من بين جميع النساء الأخريات في حالة تعدد نساء الرجل الواحد:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء: 3]

وذلك لأنها (أي عائشة) كانت هي (من دون نساء النبي جميعا) الزوجة التي نكحها النبي وكانت لازالت بكرا، أي لازالت محصنة. بينما كانت جميع نسائه الأخريات ثيبات، أي قد نُكِحن من ذي قبل. فكان نكاحهن جميعا (باستثناء عائشة) يقع في باب القسط في اليتامى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا

مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)، فبالرغم أن خديجة مثلا هي أول من تزوج بها النبي إلا أن ترتيبها يقع (نحن نفتري القول) في باب المثنى. فهناك (في ظننا) فرق بين الترتيب الزمني في نكاح النساء والترتيب العقائدي، وهو في ظننا على النحو التالي:

⇐ خديجة هي الأولى زمنيا لكنها الثانية عقائديا لأنها كانت قد نكحت من باب نكاح الثيبات
⇐ عائشة هي الأولى عقائديا وإن لم تكن الأولى زمنيا لأنها كانت قد نكحت من باب المحصنات (بكرا)

والسبب في ذلك (نحن نفتري القول) هو أن نكاح عائشة على وجه التحديد يقع في باب انتفاء استطاعة العدل (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٢٩﴾ [النساء: 129]

وقد افترينا الظن في المقالات السابقة تلك التي تدور حول موضوع تعدد الزوجات أن الرجل لا يستطيع أن يعدد من الزوجات إلا من كانت ثيبا (أي كانت قد نُكِحت من ذي قبل)، وعندها لا يشترط في ذلك إلا القسط، وهو في ظننا المساواة في الإنفاق (رزقهن وكسوتهن بالمعروف)، أما إذا كانت الأنثى من النساء لازالت محصنة (أي لم تنكح من قبل)، فعندها يكون العدل هو شرط التعدد، وهو ما لا يستطيعه بشر (سواء كان نبيا مرسلا أو إنسانا عاديا)، لذا نحن ننفي (مفترين الظن من عند أنفسنا) احتمالية الجمع بين المحصنات من النساء، أي لا يجوز (نحن نظن) أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة من النساء البكر لأن المرخص له في ذلك هو واحدة فقط من المحصنات في الوقت الواحد. فلا تجتمع بكر مع بكر في بيت رجل واحد، وإنما تستبدل استبدالا:

- ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾ [النساء: 20]

وهو ما يفعله أهل الديانة النصرانية. لكن أهل تلك الديانة غالوا في التشديد عندما جعلوا ذلك قانونا عاما ينطبق على جميع النساء سواء كن ثيبات أو أبكارا. فهم يحرمون الجمع بين النساء (كل النساء) بغض النظر عن عذريتها.

أما نحن، فإننا نظن أنه في الوقت الذي لا يجوز الجمع بين الأبكار من النساء المحصنات، إلاّ أنه يجوز الجمع في الثيبات من النساء، فيمكن أن تجمع ثيب مع ثيب أو ثيب مع بكر في بيت الرجل الواحد، لكن لا تجتمع بكر مع بكر في نفس البيت، لتكون النتائج كما افتريناها سابقا من عند أنفسنا على النحو التالي:

1. يستطيع الرجل أن يعدد الأزواج ما طاب له من الثيبات من النساء، فلا حد أعلى للعدد (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)
2. إذا حصل الجمع بين الثيبات يكون القسط بينهن هو الواجب

3. القسط لا يشمل أكثر من الأمور المادية (الرزق والكسوة بالمعروف)، وهو لا يشمل في ظننا المعاشرة الجنسية.
4. لكن – بالمقابل- لا يستطيع الرجل أن يجمع بين المحصنات (أي من كانت بكرا)، فالحد الأعلى هو واحدة (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)
5. تنتفي إمكانية الجمع بين النساء المحصنات (البكر) وذلك لشرط حصول العدل وهو ما لا يستطيعه البشر (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)
6. يصبح الاستبدال هو الحل إذا أراد الرجل الزواج بأكثر من واحدة من النساء المحصنات (البكر).
7. الخ.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: كانت عائشة هي الوحيدة التي نكحها النبي وكانت لازالت محصنة (بكرا)، أي لم ينكحها زوج غيره ولم تنكح هي زوجا غيره من قبل. فكانت هي في ظننا الزوجة الواحدة (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)، وما جمع الرسول بينها وبين بكر أخرى من النساء وذلك لانتفاء القدرة على العدل بينهن. بينما كانت جميع نساؤه الأخريات ثيبات (أي متزوجات من ذي قبل)، فتم الجمع بينهن على أساس استطاعة القسط بينهن.

ولما كنّا نظن يقينا أن أي فعل يقوم به النبي لا يمكن إلا أن يكون بوحي من السماء، فإننا نطرح التساؤل التالي على أسماع الجميع، علنا نجد يوما من يرد بإجابة تخرج الناس من هذا التخبط الفكري، والتساؤل هو: هل كان من باب الصدفة المحضة أن تكون جميع نساء النبي (باستثناء السيدة عائشة) من الثيبات؟ ألم يكن بمقدور النبي الكريم أن ينكح ما شاء؟ ألم يكن المسلمون جميعا على استعداد لهذه المصاهرة الطاهرة؟ فلم يا ترى لا يتزوج محمد إلا بمن كانت ثيبا (باستثناء عائشة - بالطبع)؟ من يدري؟!!!

نتيجة مفتراة أخطر من سابقتها: كان الرسول الكريم يقسط بين نسائه جميعا (بالرزق والكسوة) لكنه لم يكن يعدل بينهن لأنه في نهاية المطاف بشر ينطبق عليه قول الحق:

- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: 129]

وذلك لأن العدل لا يتحقق فقط بالرزق والكسوة أو المعاشرة الجنسية وإنما بالقول أيضا:

- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]

ولما أصبح من المستحيل حصول الاستطاعة بالعدل بالقول، لا يمكن لبشر (حتى وإن كان رسولا كريما كمحمد نفسه) أن يعدل بين نسائه، فلا استثناء في ذلك بصريح اللفظ (كما نفهمه) من الآية الكريمة:

- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: 129]

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يقودنا إلى النتيجة التي مفادها أنه أصبح مرخصا للزوج (كل زوج) أن لا يعدل بين أزواجه ولكن يشترط عليه أن يقسط بينهن. لذا تصبح المعاشرة الحميمية والرغبة في الصحبة والمبيت من اختيار الزوج نفسه. فهو من يقرر أي من نسائه يمكن أن تصاحبه في فراشه، وأي منهن تصاحبه في سفره، ولا يحق للأخريات (من نسائه) الاعتراض على قراره، لأن تلك رغبة دفينة عند الرجل يحققها كيفما شاء ومتى شاء ومع من شاء منهن مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب: 51]

نتيجة مفتراة: لا تنظيم للدور بين نساء الرجل.

ومن أراد المجادلة فليرجع إلى أمهات كتب المسلمين ليجد كيف كان ذلك الدور المزعوم ينتقض في كل حادثة، وليس أدل على ذلك من وفاة النبي في بيت عائشة التي لم تكن (كما تقول رواياتهم) هي صاحبة الدور حينئذ. فهل كان النبي يسن شريعة الدور وهو من ينقضه؟! هل تظنوها يا سادة من سلوك الأعراب على طوابير الخبز المدعوم حكوميا؟! أم تحسبونها من تصرفات الموظفين الأردنيين للحصول على كابونات عبد الله النسور (رئيس الوزراء الأردني) وخاصة المحاربين القدامى الذين انتهى بهم المطاف يستلمون الأرصفة من بزوغ شمس الفلق حتى غروب شمس الغسق من أجل حفنة من الدراهم، تكاد لا تميزهم عن المتسولين على أرصفة الطرقات؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى: نحن نكاد نلقي بظلال الشك على الرواية التاريخية التي قالت بأن الرسول قد اصطحب عائشة في تلك الغزوة لأن السهم (القرعة) قد وقع عليها. ونفتري الظن – بالمقابل- بأن مصاحبة عائشة للنبي في تلك الغزوة كان برغبة من النبي نفسه. فهو من اختار عائشة للخروج معه. ولكن لماذا؟

السؤال: لماذا وقع اختيار النبي على عائشة للخروج معه في غزوته؟ لِم لم يقع اختياره على غيرها؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل، وجدنا الحاجة ملحة أن نطرح على سادتنا العلماء أهل الدراية التساؤل التالي: مَن مِن زوجات النبي خرجت معه في غزواته الأخرى؟

جواب مفترى: غالبا ما وجدت العبارة التالية في مؤلفات أهل العلم "كان إذا أراد الغزو أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها"، ولكن هلا ذكرتم لنا (يا أهل العلم) مثالا واحدا غير غزوة بني المصطلق هذه التي صحب النبي فيها عائشة؟

رأينا: لو كان ما قاله سادتنا العلماء أهل الدراية صحيحا لوجدنا الأمثلة الكثيرة على ذلك. ولكن لما كانت قصة القرعة (السهم) مصطنعة لا أصل لها على أرض الواقع، نظن أنها وضعت (من قبل من ظن أنه يدافع عن عائشة) لتبرير سبب خروج عائشة على وجه التحديد في تلك الغزوة، لم نجد ما يثبتها في الغزوات الأخرى؟ فأين نساء النبي في بدر أو في أحد أو في تبوك أو في حنين؟ ألم نقرأ في كتاب النصوص المختارة في اللغة العربية وفي كتب الشريعة (الدين) عن نسيبة المازنية وما كانت تفعل في مشاركاتها في غزوات النبي؟ فلم لم يدرِّسونا عن ما فعلت عائشة أو عن حفصة أو سودة أو زينب أو ميمونة أو ... أو... في أي من غزوات النبي؟ وماذا لو فعلا حصلت الهزيمة للمسلمين كما كان في يوم أحد أو في بداية حنين؟ هل كان الرسول سيغامر بنسائه أو بنساء المؤمنين؟ من يدري؟!

رأينا المفترى: لم يكن الرسول (نحن نظن) يصحب نساءه في أي من غزواته، لأن ذلك سيشكل خطرا كبيرا عليهن، وسيكون بمثابة سنة يستنها للمسلمين كافة، فلو أصطحب النبي أحدا من نسائه في غزواته، لاقتدى الصحابة به، ولأصبح ذلك نهجا متبعا في حياة النبي ومن بعد وفاته، وهذا ما لا نجد أيا من كتب العقيدة أو السيرة قد سطرته. فخروج النساء في الغزوات أمرا غير وارد إطلاقا. انتهى.

السؤال: ما الذي حصل إذن؟ لماذا أصطحب النبي معه عائشة في تلك المرة؟

جواب مفترى: بداية نحن نعتقد جازمين أن خروج النبي إلى بني المصطلق لم يكن من باب الغزو. فتلك ليست غزوة من غزوات النبي، ولكن خروجه كان من أجل مهمة محددة بذاتها. ومن أراد المجادلة فليرجع إلى كتب سادتنا أهل الدراية لينظر بأم عينه ما سطرته مؤلفاتهم عن تلك الحادثة، فالنبي (نحن نفتري الظن) كان قد خرج إلى بني المصطلق لإبرام أمر ما، ولكنه لم يكن ذاهبا لغزوهم. وفي تلك المرة ظهر أمر المنافقين جليا، فأنزل الله قول الحق الذي فضح ما قالوا:

- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: 8]

نتيجة مفتراة: كان النبي قد خرج إلى بني المصطلق للمفاوضات، بسبب ما كان يحاول القوم أن يدبروه ضد النبي، وقد خرج النبي بجيشه حتى يكون مفاوضا قويا لا يخضع لشروط القوم كما يريدونها. وهناك حصلت مواجهة فعلية بين الطرفين لأن بعض القوم من بني المصطلق لم يكونوا راغبين في إجراء المفاوضات، فحصلت الهزيمة الساحقة لهم. وكان من نتيجة هذه الهزيمة غنائم كثيرة للمؤمنين. وهناك ظهرت مشاريع المنافقين على العيان.

فكيف كان ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا سلوك المنافقين من جذوره، لوجدنا أنهم هم الذين كانوا قد أقسموا بالله لو أن النبي أمرهم بالخروج لخرجوا:

- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النور: 53]

ولكنهم هم الذين كانوا على الدوام يتباطئون في الخروج خوفا من أن يصيب النبي مكروها:

- ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء:72]

ولكن ما أن كان النبي يظفر بالغنائم حتى يبدون كل أسف وندم على ما فاتهم:

- ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: 73]

إن النتيجة التي نجهد للوصول إليها هي التالي: كان مجتمع المدينة يعج بأهل النفاق، وعلى رأسهم زعيم المنافقين عبد الله ابن أبي ابن سلول، وقد كان خطره يكمن في عدم معرفة من هم في صفه من أهل المدينة. وهنا كان لابد للنبي أن يدبر أمرا ما (بتأييد إلهي) لكشف هؤلاء اللذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والعداوة للنبي ولهذا الدين. وكان أحد تلك التدابير التي اتخذها النبي أن يتكشف أمر المنافقين جميعا.

- ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: 41-43]

وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) كيف استطاع النبي أن يصد خطرهم بما دبره الله له، وبما أيده به من الحكمة.

ونحن نكاد نجزم الظن بأن اصطحاب النبي للسيدة عائشة في تلك الرحلة كان واحدا من تلك التدابير، لأن الأمر كان على درجة من الخطورة حتى وصل الخطر إلى بيت النبي نفسه، ولكن كيف كان ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن لهذا علاقة بزواج النبي من زينب بنت جحش، مفارقة زيد بن حارثة. ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: تحدثنا في المقالات السابقة عن هذه القصة، وما يهمنا في الأمر هنا أن زواج النبي بزينب كان في السنة الخامسة من الهجرة وأن خروج النبي إلى بني المصطلق كان في السنة السادسة للهجرة،

وأن أهم الذين اشتركوا في حديث الإفك (كما تجمع على ذلك تقريبا) كل روايات أهل العلم هي أخت زينب المعروفة باسم حمنة. انظر ما جاء في التفسير السابق:

وأنه لم يسم منهم أحد إلا حسان بن ثابت , ومسطح بن أثاثة , وحمنة بنت جحش

ولو دققنا في تلك الروايات لوجدنا أن ذكر زينب كان حاضرا. ففيها نجد أن النبي نفسه كان يسأل زينب على وجه التحديد عن أمر عائشة:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري وما رأت وما سمعت ,

كما أن الصراع بين عائشة وزينب كان حاضرا بالرغم من محاولة تجميله من قبل الرواة. انظر ما جاء في التفسير السابق:

قال : تفاخرت عائشة وزينب , قال : فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء . قال : وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة

وهذا الصراع بين أزواج النبي مثبت بصريح اللفظ القرآني، فلا داعي (نحن نظن) من التردد في طرحه أو مناقشته:

- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: 5]

والمشكلة كانت تكمن (نحن نفتري القول) في بعض نساء النبي، فبالرغم أن النبي كان قد أسر مثلا إلى بعض أزواجه حديثا إلا أن واحدة من بينهن هي من نبأت به:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: 3]

نتيجة مفتراة: كانت بعض أسرار بيت النبي تتسرب من خلال أحد زوجاته، فكان الرسول يحاول أن يعرف من التي كانت تسرب تلك الأخبار من بين زوجاته، فكانت هي تلك التي نبأت بالحديث الذي أسره النبي، وهو الحديث الذي أظهره الله بعد ذلك.

فمن هي؟

رأينا المزعوم: إنها زينب بنت جحش، وكان ذلك من خلال أختها حمنة، وهي التي شاركت في حديث الإفك وإن لم تكن هي من جاءت به.

فكيف حصل ذلك؟

بداية، دعننا ننظر في السياق القرآني الأوسع الخاص بذاك الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: 3-4]

لو دققنا في هذا السياق جيدا لوجدنا أن بعض نساء النبي قد حاولا أن يتظاهرا عليه، أليس كذلك؟ فما معنى احتمالية أن يتظاهرا عليه؟ وكيف يكون التظاهر أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التظاهر يحمل في ثناياه أن يساعد طرف ما طرفا آخر بطريقة غير واضحة للعيان من أجل تحقيق هدف ما يعود بالنفع على المتظاهرين، بالضبط كما حصل (نحن نظن) في حالة موسى وأخيه هارون:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾ [القصص: 48]

فعلاقة موسى بهارون هي علاقة الأخ بأخيه، أليس كذلك؟ وأحدهما يشدد أزر الآخر:

﴿هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١﴾ [طه: 30-31]

فعضد موسى قد شُد بأخيه هارون:

- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص: 35]

ففي تلك المواجهة بين الخصوم، ظن آل فرعون أن الأخوين هارون وموسى يتظاهران، أي يساعد أحدهما (هارون) بطريقة غير ظاهرة للعيان أخاه الآخر موسى الذي هو في مواجهة مباشرة مع خصمه (فرعون)، فكان ذلك من باب التظاهر.

ولو حاولنا تطبيق هذا السيناريو في حالة الخصام الذي كان دائرا بين زوجات النبي، لوجدنا أن الصراع كان على أشده بين زينب بنت جحش (التي تزوجت بالنبي حديثا) من جهة وعائشة ابنت أبي بكر من جهة أخرى، وذلك لأن عائشة كانت المحصنة الوحيدة التي نكحها النبي، بينما كانت زينب هي مفارقة زيد ابن حارثة، فلم تحظى بتلك المكانة بالرغم من نسبها في بني طالب. وفي هذا الصراع وجدت زينب أنها بحاجة إلى مساعدة خارجية غير معلنة لتقوية موقفها في هذا الصراع، فشدت عضدها بأختها حمنة. فكان ذلك من باب التظاهر:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾ [القصص: 48]

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مزعومة غير موجودة إلا في أذهاننا: نحن نتخيل الأمر وقد حصل على النحو التالي: يسر النبي حديثا خاصا جدا إلى بعض أزواجه، وأظن أن ذلك كان من باب الاختبار، والهدف هو أن يَعلم النبي كيفية تسريب الأخبار من بيته. وهنا تقوم واحدة من بين جميع نسائه بتسريب الخبر، فتنبئ به:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]

وكان ذلك بطريقة التظاهر، عندما استعانت بأختها لتنفيذ مرادها:

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]

ولكن لما كان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، كان لابد للأمر أن يظهر:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]

ولما كان من باب النبأ، فهو إذن لا يخلو من المشاكل، لأن حامله قد يكون فاسقا كما جاء في سورة الحجرات على وجه التحديد:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: 6]

والأمر لا يخلو من صراع النساء فيما بينهن:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: 11]

لأن كثيرا من ذلك النبأ قد يقع في باب بعض الظن الآثم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: 12]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان المستفيد الأول من إشاعة التهمة ضد عائشة على وجه التحديد هي زوج النبي زينب بنت جحش، وكان ذلك من باب صراع الضرائر، وتم ذلك بطريقة التظاهر عندما ساعدت زينب في ذلك بطريقة سرية جدا أختها حمنة التي ورد ذكرها في جميع روايات حديث الإفك.

السؤال: لماذا اختار النبي أن يصحب عائشة على وجه التحديد في خروجه إلى بني المصطلق؟

رأينا المفترى الذي لا نريد من أحد أن يصدقه: لأن النبأ الذي أسر به النبي لبعض أزواجه (وليس جميعهن) كان يخص عائشة على وجه التحديد. فاصطحبها النبي معه حتى لا تعلم به، ولكي يعلم النبي بنفسه من هي زوجته التي ستقوم بتسريب النبأ، والطريق التي يتم بها ذلك التسريب.

لكن يبقى التساؤل المشروع قائما: من الذين جاءوا بالإفك؟

رأينا: أنهم عصبة من المؤمنين:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور: 11]

رأينا المفترى: نحن نظن مفترين القول من عند أنفسنا أنه لما كان الذين جاءوا بالإفك عصبة من المؤمنين، لذا يستحيل (نحن نفتري القول) أن تكون زينب أو أختها حمنة هما من جاءا بالإفك بالرغم أنهن قد حاولا استغلال الحديث لمصلحة زينب في صراعها مع عائشة. فالذين جاءوا بالإفك هم عصبة من المؤمنين لا دخل للنساء به من قريب أو بعيد وإن كن قد انشغلن به بعد أن حصل.

فمن الذي جاء بالإفك إذن؟ يسأل صاحبنا

رأينا المفترى: لما كانت عائشة هي أحد المتضررين بحديث الإفك، كان الذي وجه التهمة لعائشة لا يقصد شخص عائشة على وجه التحديد لأنه لن يستفيد من ذلك في شيء، لذا كان مخططه يتجاوز عائشة، فمن هو يا ترى؟

رأينا المفترى: لاشك عندنا أن الذين اشتركوا في حديث الإفك هم طرفان، تكوّن كلُّ طرف منهم من خمسة من الأشخاص (الرجال)، فشكلوا معا عصبة (أي عشرة) كما كان إخوة يوسف العشرة عصبة في تلك المؤامرة التي حاكوها ضد أخيهم:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]
- ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف: 14]

فهم إذن عشرة من الرجال تعاونوا معا كما قد تتعاون العصبة من الرجال أولي القوة في حمل مفاتح كنوز قارون:

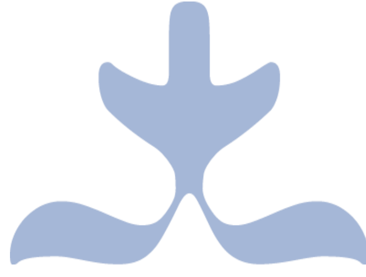
- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

فمن هم – يا ترى؟ ربما يسأل صاحبنا.

هذا ما سنحاول الخوض به في الجزء القادم من هذه المقالة، وسيكون الهدف حينها تبيان (إن أذن الله لنا بعلم من لدنه) كيف كان هدف أحد الطرفين النيل من شخص أبي بكر لغرض دنيوي بحت، بينما كان غرض الطرف الآخر هو النيل من شخص الرسول الكريم نفسه وبالتالي العقيدة برمتها. وسننتهي (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نبين حينئذ كيف كان تدبيرهم هذا وبالا عليهم وعلى كل من لحق بهم إلى يوم الدين، وربما يتضح لنا (إن شاء الله) كيف أن هذه الحادثة لازالت حتى الساعة مؤشرا واضحا للعيان للفصل بين من يتبع دين محمد الحق ممن يتبع منهاج عبد الله بن سلول حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والله أعلم

اللهم أعوذ بك أن أكون قد افتريت عليك الكذب أو أن أكون قد قلت ما ليس لي بحق، وأسألك وحدك أن تعلمني ما لم أكن أعلم وأن تهديني لأقرب من هذا رشدا وأن تزدني علما.



حديث الإفك

الجزء الرابع

كيف كان أبو بكر مستهدفا في حديث الإفك؟



الجزء الرابع: كيف كان أبو بكر مستهدفا في حديث الإفك؟

كان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تقديمه في الجزء السابق من هذا الكتاب يدور حول الافتراض الظني بأن الذي جاء بحديث الإفك كان يقصد الإساءة إلى النبي الكريم وإلى صاحبه الأول أبي بكر الصديق من خلال السيدة عائشة. وقد حاول نفر ممن حول النبي الاستفادة من هذا الحديث لأغراض شخصية بحتة. فأصبح المستفيدون من هذا الحديث ثلاثة أنواع وهم:

⇐ من أراد القدح بعائشة لخدمة مصلحة ذاتية آنية
⇐ من أراد القدح بأبي بكر الصديق لمطامع دنيوية
⇐ من أراد القدح بالنبي الكريم لأغراض أخروية

وقد حاولنا التعرض للمجموعة الأولى وهم الذين حاول الاستفادة من حديث الإفك للتعرض للسيدة عائشة لغايات في أنفسهم، تخدم مصلحة ذاتية آنية. وظننا أن الذي فعل ذلك هي زوج النبي زينب بنت جحش بالتعاون مع أختها حمنة. وافترينا الظن أنهما لم يكونا مصدر الإفك ولكنهما حاولا الاستفادة من حدوثه لتعزيز مكانة زينب عند النبي والتقليل من مكانة عائشة عنده مادام أن عائشة هي الزوجة الوحيدة التي نكحها النبي وكانت لازالت محصنة (أي لم تنكح من ذي قبل)، فكانت هي الواحدة من النساء التي لا يطالب زوجها أن يعدل بينها وبين بقية أزواجه. فهي ذات مكانة خاصة لا تدانيها زوجة أخرى في ذلك. ولمّا كانت زينب ذات جمال (كما تقول رواياتهم)، ولمّا كانت صاحبة النسب العريق (كما جاء في كل مؤلفاتهم)، ولما كانت ...، الخ. ظنت أنها تستطيع النيل من مكانة عائشة عند النبي، لتحقيق مكانة خاصة بها عند رسول الله. فاستعانت بأختها حمنة لتنفيذ مآربها، فجاء فعلهما ذلك في باب التظاهر:

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]

وحصل هذا كله بعد نبأت هي أختها بالحديث الذي أسرّه النبي إلى بعض أزواجه:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]

ولو راقبنا صيغة الخطاب لوجدنا أن الحديث قد بدأ بصيغة الجمع عندما أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا) ثم تحول إلى المفرد عندما نبأت واحدة منهن فقط بذلك الحديث (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ)، ثم تحول إلى المثنى عندما حصل تسريب الحديث، فطلبت التوبة من اثنتين (إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)، وجاء التحذير من التظاهر لاثنتين (وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)، فأصبح الخطاب بصيغة المثنى. وانظر عزيزي القارئ السياق كله – إن شئتَ- من هذا الجانب:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: 3-4]

فكيف حصلت القصة كلها؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن القصة قد حصلت على النحو التالي: كان جانبا من حديث الإفك (نحن نفتري الظن) أمرا مدبرا من النبي نفسه ليفضح كل من كان في قلبه مثقال ذرة من نفاق وليوقف كل شخص بغض النظر عن مكانته عند حده، ليحق الحق ويبطل الباطل حتى وإن وصل الأمر إلى بعض أزواجه. لينتهي الأمر بالخير على المسلمين إلى يوم الدين، فكيف دبر النبي ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرسول قد أسرّ إلى بعض أزواجه حديثا، ولكنه لم يسر ذلك الحديث إلى كل أزواجه (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا). وكان يهدف النبي (نحن نتخيل) من وراء ذلك أن يعلم مَن مِن نسائه ستنبئ به، وبالفعل قامت واحدة فقط بتسريب ذلك الحديث (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ). ولكن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، فقد كان الله هو من أظهره كله (وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ)، وعندها قام النبي بتعريف بعض ذلك الحديث والإعراض عن بعضه (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ)، لتكون التساؤلات الآن على النحو التالي:

⇐ ما هو الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه؟
⇐ من هن أزواجه اللائي أسر لهن النبي بذلك الحديث؟
⇐ من هن أزواجه اللائي لم يسر إليهن بذلك الحديث؟
⇐ كيف أظهر الله ذلك الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه؟
⇐ كيف عرّف النبي الكريم بعض ذلك الحديث وكيف أعرض عن بعض؟
⇐ الخ.

فكيف حصل ذلك كله؟

تخيلات مفتراة لا أساس لها: نحن نظن أن التعريف من النبي ببعض الحديث والإعراض عن بعضه قد حصل بعد أن نبأت واحدة من أزواجه به وبعد أن أظهر الله الأمر برمته (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ)، الأمر الذي يدفعنا إلى طرح التصور التالي: عندما أظهر الله ذلك الحديث، أخذت من نبأت به تلقي باللائمة على النبي نفسه لأنه هو (برأيها) من أسر لها الحديث أولا، فقد استخدمت ما أسر النبي لها ولبعض أزواجه كدليل على ما قالت لتبرئة نفسها من التهمة التي وجهت له بعد أن أظهر الله الأمر برمته. وعندما ألقت باللائمة على النبي الكريم، لم ينكر ما قاله لها ولبعض أزواجه عندما أسر لهن بذلك الحديث، ولكن كانت المشكلة تكمن (نحن لازلنا نتخيل) في أن ما تناقلته النسوة حينها لم يكن بالحرفية التي قالها النبي، فقد حصل أن زادت النسوة على الذي ذكره النبي بحرفيته عندما أسر بذلك إلى بعض أزواجه، فما كان للنبي الكريم الذي لا ينطق عن الهوى إلا أن يقرّ بما قال بالفعل وهو بعض ذلك

الحديث، وهو الذي عرفه (عَرَّفَ بَعْضَهُ) ولكنه أعرض عن كل ما زاد عن ذلك مما قاله الآخرون زيادة على ما قاله النبي، وهذا هو الذي أعرض النبي عنه (وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ).

السؤال: ما هو الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه وعرفه بعد ذلك؟ وما الحديث الذي جاء زيادة من عند الآخرين على قاله النبي وهو الذي أعرض عنه؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك الحديث يمكن أن نجده في الآية السابقة لهذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن الحديث الذي أسره النبي لبعض أزواجه وهو مطلع سورة التحريم، فلنقرأ الآيات في سياقها الأوسع، محاولين أن نجد الرابط بينها جميعا بحول من الله وتوفيق منه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 1-4]

السؤال: ما علاقة هذه الآيات الكريمة بعضها ببعض؟

⇐ فما علاقة ما حرم النبي مما أحل الله له بذلك الحديث الذي أسره النبي لبعض أزواجه؟
⇐ وما علاقة ذلك بالفرض الإلهي بتحلة الأيمان؟
⇐ الخ.

رأينا: للإجابة على ذلك نحن نجد الضرورة تستدعي أن نفتري القول يقينا بأن القرآن الكريم ليس عبارة عن جمل متناثرة مبعثرة، فلابد من وجود رابط قوي بين الآيات المتجاورة، ولابد من وجود مسوغ قوي يبرر التجاور بين هذه الآيات الكريمة، فكيف يمكن إثبات ذلك؟

رأينا: لكي نتمكن من إثبات ذلك، لابد بداية من فهم منطوق كل آية بحد ذاتها ثم محاولة ربطها بما يجاورها من الآيات السابقة واللاحقة حتى يصبح النص القرآني نصا متماسك الوحدة والموضوع (أو coherent whole بالمفردات الأعجمية). لتكون التساؤلات المسبقة هي:

⇐ ما الذي أحله الله للنبي وحرمه النبي (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)؟
⇐ وما علاقة ذلك بمرضاة أزواجه (تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ)؟
⇐ ومن هن أزواجه اللائي كان النبي يبتغي مرضاتهن؟
⇐ ولماذا جاء الفرض الإلهي بتحلة الأيمان مباشرة (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)؟
⇐ وما علاقة هذا كله بالحديث الذي كان النبي قد أسره إلى بعض أزواجه (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا)؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذه التساؤلات جميعها لها علاقة بالحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه، كما نفتري الظن بأن ذلك الحديث كان من أجل مرضاتهن (أي بعض أزواجه وليس كلهن). وأن الحديث الذي أسره النبي كان فقط لأزواجه اللائي كان يبتغي مرضاتهن، وأن الله قد فرض له على الفور تحلة يمينه من ذلك مباشرة لأنه ما كان للنبي أن يحرم ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه.

فكيف حصل ذلك كله؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن الأمر له علاقة مباشرة بالسيدة عائشة، وهي (نحن نفتري الظن) التي لم يسرّ لها النبي ذلك الحديث لأن الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه (أي نساؤه الأخريات) كان حديثا خاصا بالسيدة عائشة.

فما هو؟

جواب مفترى: أنه حديث خاص بين الأزواج، فما حدّث به محمدٌ أزواجَه لم يكن ليحدّث به الناس، لأن ذلك يقع في باب الخصوصية الزوجية. ولو كان الأمر على غير تلك الشاكلة لما خص النبي (نحن نفتري القول) بعض أزواجه بذلك الحديث على جانب السرية (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا) على وجه التحديد، ولربما أسره النبي إلى كل أزواجه، أو لربما أخرجه من نطاق السرية لو كان على غير تلك الشاكلة.

السؤال: فما هو الحديث الخاص (بالحياة الزوجية) الذي أسرّه النبي إلى بعض أزواجه ابتغاء مرضاتهن وكان يخص السيدة عائشة على وجه التحديد كما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: إنه تحريم ما أحل الله له

السؤال: وما هو؟

جواب خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري القول أن النبي قد أسر إلى بعض أزواجه بأنه قد حرم على نفسه الاقتراب من عائشة في معاشرة الزوج لزوجته. أي أسر النبي إلى بعض أزواجه أنه لا يجامع عائشة. انتهى.

تخيلات مفتراة: كان هذا الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه قد لاقى قبولا شديدا عند أزواجه وخصوصا السيدة زينب بنت جحش، وفي الوقت ذاته استدعى التدخل الإلهي المباشر بأن يتراجع النبي على الفور عن قراره هذا، لأن في ذلك تحريم لما أحله الله له، وهو ما لا يجوز للنبي أن يفعله.

السؤال: ما الذي حصل حينها؟

رأينا: كان لابد للنبي أن ينصاع للأمر الإلهي والرجوع عن قراره هذا، فكيف سيفعل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أنه عندما وجد النبي نفسه في هذا الموقف الحرج المتمثل بأنه قد حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه وفي الوقت ذاته عليه الانصياع التام للأمر الإلهي بالتراجع عن يمينه هذا، ما كان منه إلا أن يتحلل من يمينه على الفور، فاتخذ قراره (نحن لازلنا نتخيل) باصطحاب عائشة معه في خروجه إلى بني المصطلق. فحاول بذلك أن يرضي عائشة التي كان قد حرم على نفسه الاقتراب منها، ويقربها له، فكانت هي من شاء أن يؤوي إليه منهن، متمثلا قول الحق في كتابه الكريم:

- ﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب: 51]

ويكأن محمدا قد قرر إذن أن يصطحب عائشة على وجه الخصوص في رحلة إلى خارج الديار (كما يفعل الأزواج) بعد الخناق لتلطيف الأجواء والخروج من الأجواء المشحونة. لكن ما الذي حصل وراءه؟

رأينا: لا شك أن خروج عائشة مع الرسول الكريم إلى بني المصطلق بعد أن أسر النبي إلى بعض أزواجه بذلك الحديث قد أدى إلى أن لا تقر أعين الأخريات كثيرا، كما قد يكون قد سبب الحزن وعدم الرضا عند بعضهن. لكن الأهم من ذلك كله هو وقوعهن في حيرة شديدة (أي لنقل الفتنة المرجوة). ولعلي أتخيل ما كان يفتنهن حينئذ هو الموقف التالي: الرسول يخبرنا بأنه لن يجامع عائشة في الفراش وها هو يقرر أن تخرج معه إلى بني المصطلق، فلماذا؟ لماذا فعل الرسول ذلك؟ ربما كن يتساءلن.

جواب: لعل هذه فتنة عظيمة لنساء النبي لأنهن بكل بساطة لم يستطعن أن يعلمن السبب وراء هذا التصرف من النبي الكريم. فما الذي كان من الممكن أن يفعلنه في ظل هذا التصرف المتضارب ظاهريا من الرسول الكريم؟

رأينا: كانت ردة فعل كل واحدة منهن على ذلك يعتمد على درجة صدق الإيمان الذي وقر في قلبها. فلاشك أن الكثير منهن ستنصاع للأمر مادام أن هذا قرار النبي نفسه:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: 36]

فكان لابد من الانصياع التام لما قضى الله ورسوله.

السؤال: فما الذي فعلنه إذن؟

رأينا: لا أظن أنه قد بدر منهن أكثر مما جاء في الآية الكريمة التي تبين تصرف المؤمنين الحقيقيين في حديث الإفك:

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]
- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

نعم، أظن أن هذه كانت ردة فعل الكثير من أزواج النبي، فلقد ظنن بأنفسهن خيرا، والأهم من ذلك أنهن قد أعرضن عن الخوض فيه.

السؤال: وهل هذا كان فعلا سلوك جميع أزواج النبي؟

رأينا المفترى: أظن ذلك، باستثناء السيدة زينب بنت جحش، وهي (نحن نفتري الظن) التي نبأت بما كان النبي قد أسر إليها وإلى بعض أزواجه من ذي قبل. فماذا فعلت؟

رأينا: ما أن أسر النبي ذلك الحديث (عدم رغبته بمجامعة عائشة) حتى كانت زينب قد حدّثت أختها حمنة بما أسره النبي لها. وربما جاء إخبارها لها بذلك من باب ما تحدث به الأختُ أختَها، وربما كان الهدف هو لتبين مكانتها عند زوجها؛ فتخلي النبي عن مجامعة عائشة يعني أن زينب ستكون هي الأكثر قربا للنبي الكريم. ولكن هنا بالضبط حصل سوء الفهم من الذين لم يكونوا من المؤمنين والمؤمنات الذين ظنوا بأنفسهم خيرا، فما الذي حصل؟

رأينا: ما أن جاء العصبة بحديث الإفك حتى كانت حمنة هي أول من تلقفته، لتفسّره على هواها. فقامت بربط الأمرين معا من منظورها الخاص، وعلى طريقتها، والأمران هما:

1. قرار النبي بعدم مجامعة عائشة (التحريم) كما روته لها أختها زينب من ذي قبل
2. حديث الإفك الذي جاء به العصبة في خروج النبي إلى بني المصطلق

وقد كان لسكوت النبي فترة طويلة من الزمن أثرا في نفسها، فظنت مخطئة من عند نفسها أن قرار النبي بعدم مجامعة عائشة وسكوته فترة من الزمن عن البت بالأمر بعد حديث الإفك هو (كما تخيلت) لشك النبي في "شرف" المرأة. فهي تظن أن النبي ما كان ليسر إلى بعض أزواجه هذا الحديث ولم يكن ليسكت هذه الفترة الطويلة دون ردة فعل واضحة لولا ظنه بـ "خيانة" زوجته، فأخذت تحدث الناس بالإفك لتثبت التهمة على المرأة.

وهنا بالضبط جاء تدخل النبي المباشر، ولكن كيف حصل ذلك؟

رأينا: عندما أظهر الله الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه، وتبرئة عائشة من حديث الإفك بصريح الآيات الكريمة، أصبحت حمنة وأختها زينب في دائرة الاتهام، فحاولت المرأة (خاصة حمنة) أن تدفع عن نفسها التهمة مستعينة بالحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه، ولكن كانت المشكلة أنها لم تذكر الحديث كما حصل فعلا من النبي الكريم وهو أنه قد اتخذ قراره بعدم مجامعة عائشة (أي التحريم) وكفى، لكنها أضافت إليه فهمها الخاص للسبب الذي من أجله فعل النبي ذلك. وهنا تدخل النبي بالتعريف: فأقر ما قاله بالفعل وهو التحريم ولكنه أعرض عن السبب الذي ذكرته المرأة من عند نفسها لأن ذلك لا يعدو أكثر من فهمها هي للواقعة وليس لما كان يدور فعلا في خلد النبي، وكأن النبي (نحن نتخيل) يقول لها: صحيح أنني قد حرمت عائشة على نفسي، وذكرت ذلك سرا لبعض أزواجي، ولكن ليس للسبب الذي تظنين:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: 3]

ولو دققنا فعلا في الآية الكريمة التالية جيدا لوجدنا أنه في حين أن التظاهر على النبي قد جاء من طرف زينب وأختها (بصيغة المثنى)، فإن النبأ بتسريب الخبر من طرف زينب إلى أختها قد جاء لأن الله هو مولى النبي وجبريل وصالح المؤمنين بعد ذلك، فكلهم ظهيرا للنبي الكريم:

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: 4]

ونحن نتخيل أن النبي الكريم قد عمد إلى إحضار زينب وأختها للتحقيق بالأمر على انفراد بعد حصول التبرئة، وهنا حصل أن أقرّت زينب بأنها هي من نبأت به لأختها حمنة، ولكن حمنة أصرت على أنها فهمت من ذلك السبب الذي من أجله حرم النبي على نفسه عائشة لظنها بـ "خيانتها"، فما كان من النبي إلا أن يعرف بعضه ويعرض عن بعضه:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]

السؤال: لماذا فعل النبي هذا مع بعض أزواجه؟

رأينا: نحن نظن أن النبي قد فعل ذلك لكي يوقف أزواجه كلهن عند حدهن فلا يتجاوزن الخطوط الحمراء المسموح بها. فكثرة الكلام غير المتوازن (نحن لازلنا نتخيل) قد وصل حتى بيت النبي الكريم نفسه، فكان لابد لمحمد أن يضع حدا لهذا الأمر، وما أن حصل حديث الإفك حتى استطاع النبي أن يبيّن للجميع (بمن فيهم أزواجه) أن الأمر ليس بالهزل وأن الجميع يجب أن يلتزم حده ويعرف مقداره فلا يتجاوزه. ولو تدبرنا بقية قصة ذاك الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه، لوجدنا أن خاتمته كانت بالتهديد الصريح لأزواج النبي بالطلاق:

- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ٥﴾ [التحريم: 5]

وأصبح التوجيه الإلهي لأزواج النبي على النحو الذي تصوره الآيات الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ [الأحزاب: 28-33]

السؤال: إذا كان النبي الكريم قد قطع بهذا الأمر ألسنة أزواجه ووضع حدا لهن جميعا، فلماذا إذن حصل ذلك أمام الناس جميعا؟ لماذا نبأ الله نبيه به وأظهره عليه؟ ما علاقة الأمر ببقية مجتمع المدينة؟

رأينا: هذا ما نظن أنه الفتنة التي حصلت لقوم محمد، إنها الفتنة نفسها التي حصلت لقوم موسى عندما تركهم بعضا من الوقت. إنها الفتنة الإلهية. إنها كقصة السامري. الخ.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا: عندما يدّعي الناس الإيمان، فإن الإله يحدث الفتنة بنفسه لينبئ ما في قلوب العباد.

اللهم أعوذ بك من فتنتك، وأسألك ربي أن لا تفتني فقد آمنت أنه لا إله إلا أنت - وأشهدك ربي بأني أشهد أنه قد جاءت رسلك بالحق.

تخيلات من عند أنفسنا: في السنة السادسة للهجرة بدا يظهر للعيان سيطرة محمد التامة على مجتمع المدينة ومن حولها من الأعراب، وبدا واضحا للقبائل المجاورة بمن فيهم أهل مكة، ويهود المدينة والأعراب من حولها أن الغلبة لا محالة لمحمد. وهنا أخذ الكثيرون يدخلون في دين الله، لكن الإيمان لمن يكن قد وقر في قلوبهم بعد. وانظر كيف تصور الآية الكريمة التالية التي جاءت في سورة الحجرات ذلك أحسن تصوير:

- ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: 14]

فقد كانت الريبة لازالت في قلوبهم:

- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات: 15]

فكان هناك من المؤمنين الذين لازالوا مرتابين، ولم يصلوا بعد إلى مرحلة الصدق التام في الإيمان. فأخذ هؤلاء المؤمنون الذين لم يصلوا بعد حد الصدق في الإيمان يمنّون على النبي بإيمانهم:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: 17]

وهنا تدخل الإله الحق بنفسه ليحدث الفتنة ليبتليهم أيهم أحسن إيمانا:

- ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 3]
- ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]
- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 167]

فكيف حصل ذلك؟

رأينا: عندما خرج النبي من المدينة متجها إلى بني المصطلق، كان الخارجون معه كثيرون، ربما كان خروج بعضهم طمعا في الغنائم، لكن هناك بالضبط حصل حديث الإفك، فانقسم الناس إلى معسكرين

اثنين، أحدهما يحاول أن ينئ بنفسه عن الحديث لأنهم ظنوا بأنفسهم خيرا، ولقناعتهم بأن هذا بهتان عظيم:

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]
- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

بينما خاض فريق آخر في الأمر لعدم ظنهم بأنفسهم خيرا، وكان هذا الطرف يتكون من فريقين وهما:

1. المنافقون الذين علم الله ما في صدورهم (هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ)
2. المسلمون غير المؤمنين غير الصادقين (قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا)

وقد كان هدف كل فريق منهم يختلف عن هدف الفريق الآخر، ففي حين أن هدف المنافقين كان النيل من شخص النبي الكريم والقدح بالدين والعقيدة نفسها، كان هدف الفريق الآخر وهم المؤمنون غير الصادقين دنيوي بحث، أي من أجل أن يجر عليهم مصلحة ذاتيه، كما كان موقف حمنة (أخت زينب التي ظاهرت أختها على الرسول الكريم عندما عمدت إلى نشر الأباطيل المفتراة من عند نفسها عن عائشة.

السؤال: هل كان هدف هذا الفريق هو فقط النيل من عائشة؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد أن هدف بعض الذين انضموا إلى هذا الفريق كان النيل من أبي بكر الصديق، والد السيدة عائشة وصاحب الرسول الكريم الأول.

تساؤلات

- ⇐ كيف حصل ذلك؟
- ⇐ لماذا حاول البعض النيل من أبي بكر؟
- ⇐ وماذا كانت ردة فعل الرسول على ذلك؟
- ⇐ ماذا كانت ردة فعل أبي بكر نفسه؟
- ⇐ ما علاقة أبي بكر بحادثة الإفك؟
- ⇐ كيف سيكون في النيل من أبي بكر (كما خططوا) خيرا للأمة كلها؟
- ⇐ كيف سيكون في ذلك خيرا لنا حتى يومنا هذا؟
- ⇐ الخ.

رأينا المفترى: بعيدا عن حديث النساء (زينب وحمنة)، نحن نفتري القول بأن المستفيدين من حادثة الإفك من الرجال كانوا من فئتين من الناس، فكانت فئة منهم تحاول النيل من أبي بكر لغرض دنيوي بحث وهؤلاء هم بعض المسلمين الذين لم يبلغوا مرحلة الصدق في الإيمان بعد، أما الفئة الأخرى فهم المنافقون الذين كانوا يحاولون النيل من النبي نفسه ومن رسالته التي جاء بها من عند ربه.

الدليل

لعلنا نجد في الآية الكريمة التي فضحت الذين جاءوا بالإفك الدليل عن شخصية هؤلاء الذين تعاونوا على إثبات حديث الإفك، والدليل (كما نفهمه) يتلخص بمفردة واحدة وهي مفردة عصبة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

السؤال: ما معنى أن يكون الذين جاءوا بالإفك عصبة؟

رأينا: لقد تعرضنا لمعنى هذه المفردة في مقالتنا تحت عنوان قصة يوسف. فزعمنا الظن أن إخوة يوسف كانوا عصبة لسببين رئيسيين، وهما:

1. أن عددهم كان عشرة
2. أنهم كانوا ينقسموا إلى فريقين متساويين (5 مقابل 5) لأن كل فريق منهم يربطهم رابط الأم. فهم جميعا أبناء يعقوب لكن خمسة منهم من أم واحدة وخمسة من أم أخرى، بينما كان يوسف وأخوه من أم ثالثة.

فلقد ظننا مفترين القول من عند أنفسنا أن العصبة من الرجال هم عشرة في العدد، يتكاتفون معا على تدبير أمر بينهم (كيد) لا يطّلع عليه الآخرون، ويكون تلاحمهم وتماسكهم كمثل أصابع اليدين الاثنتين العشرة إذا ما تشابكت مع بعضها البعض كما في الشكل:



فلا يستطيع أحد منهم أن يفلت عن المجموعة، لأن المجموعة ككل (العصبة) ضامنة عدم انفلاته.

(للتفصيل انظر الجزء الثالث من قصة يوسف هذه).

تخيلات من عند أنفسنا: حصل اتفاق بين عشرة من الرجال على إثبات حديث الإفك على السيدة عائشة، وكان هدف بعضهم (غير المعلن) الإطاحة بأبي بكر الصديق، بينما كان هدف الفريق الآخر (الذي يتزعمه من تولى كبره منهم) النيل من النبي الكريم ورسالته.

وسنحاول أن نبدأ النقاش هنا بالفئة الأولى وهم الذين كان هدفهم النيل من أبي بكر الصديق لغاية في أنفسهم.

السؤال: من هم هؤلاء القوم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه الفئة كانت تتكون من خمسة من الرجال كان يتزعمهم من كان في نفسه طمع للوصول إلى الخلافة من بعد وفاة النبي بالموت.

الدليل

لم يكن أقل المؤمنين إيمانا يختلف مع أكثرهم إيمانا في الحقيقة التالية: إن صاحب النبي الأول هو أبو بكر الصديق. لذا لم يكن يخطر ببال أحد من الناس حينئذ أن الشخص المؤهل للخلافة من بعد النبي محمد هو أبو بكر هذا. لذا فمن كان في قلبه طمع بالخلافة من بعد موت النبي فلابد أن يجد المسوغ الذي

قد يزيح به أبا بكر عن الساحة. لذا لما حصلت حادثة الإفك استغل هذا الطرف (نحن نفتري الظن) الحديث من أجل إثباته، لأن في إثباته تحقيق لمطامعه بالخلافة. فلربما كان منطقه (كما نفتريه) على النحو التالي: إذا صح حديث الإفك، وتبيّن للناس أن عائشة ابنت أبي بكر قد تورطت فعلا في خيانة النبي (كما فعلت امرأة نوح وامرأة لوط من قبل)، فإن ذلك لن يؤثر (حسب منطقهم) على رسالة محمد بشكل مباشر، ولكنه سيؤثر بلا شك على أبي بكر بشكل مباشر، وذلك لأن أبا بكر لن يعود مؤهلا لخلافة النبي بعد وفاته، فإن لم يكن ذلك بدافع من الناس من حوله، فسيكون ذلك بدافع من تلقاء نفسه. فلن يقبل أبي بكر (ربما كانوا يخططون) أن يكون خليفة محمد مادام أن ابنته قد خانت النبي. فلعل الكثيرون (هم يظنون) لن ينسوا أو يتناسوا هذه الحادثة لو حصل أن قبل أبو بكر الصديق أن يتولى الخلافة من بعد النبي إذا ما ثبت حديث الإفك على ابنته.

ولو تدبرنا سورة التحريم نفسها التي كنا نناقش مطلعها، لوجدنا أنها قد خُتمت بالحديث عن من كانت تحت رسل الله فخانتهم مقابل من كانت عفيفة طاهرة الفرج لا تقبل بالخيانة، فقد ضرب الله مثلا للفئة الأولى من الكافرين امرأة نوح وامرأت لوط للكافرين:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

وضرب للمؤمنين مثل امرأة فرعون:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها:

- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]

لذا، لم يكن القدح في زوج النبي عائشة (هم يخططون) سيؤثر في رسالة محمد لأن خيانة المرأة لا تلتصق بزوجها حتى وإن كان نبيا مرسلا، وليس أدل على ذلك مما بدر من امرأت نوح و امرأت لوط اللتان خانتا رسولا ربهما. ولكن الخيانة (في نظرهم) لا شك ستلتصق بوالد المرأة. فخيانة عائشة (إن حصلت) ستكون وصمة عار في جبين والدها، الذي لن يكون بعد ذلك منافسا قويا على تسلم السلطة بعد وفاة محمد.

الدليل: صحبة الصديق للنبي في الغار

عندما هاجر النبي إلى المدينة، لم يختار أحدا ليصاحبه في رحلته تلك إلا الصديق الذي آمن به قبل كل الناس، فكان أبو بكر هو صاحب النبي الكريم في الغار:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]

ولما حاول البعض التشكيك في صحبة أبي بكر للنبي في تلك الرحلة دخلوا بمنطقهم المفترى من عند أنفسهم من الزاوية التالية: لقد حزن أبو بكر الصديق في الغار بدليل أن الرسول طلب منه أن لا يحزن (**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ**)، أليس كذلك؟

وإذا أخذنا (يقول المنطق) الآية الكريمة التالية بعين الاعتبار:

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]

تصبح النتيجة الرياضية التي لا مفر منها أن أبا بكر ليس من أولياء الله لأنه بكل بساطة قد حزن، أليس كذلك؟

فصبّوا جام غضبهم على الصديق من هذا الجانب، أي القدح بسيرته الإيمانية، مفترين الظن أنه رجل لم يكن من المؤمنين حقا بدليل أنه قد حزن، ولو أنه كان من أولياء الله لما حزن.

وكان هذا في ظنهم دليلا قويا أن يهاجموه أيضا من خلال حديث الإفك بإلصاق تهمة الخيانة الزوجية بعائشة، فعقدوا المشابهة بين ما حصل من عائشة بما حصل من امرأت نوح وامرأت لوط.

السؤال: كيف يمكن الرد؟ هل ما قاله هؤلاء صحيح فعلا أم أن هناك تكملة للقصة لم يذكروها؟

رأينا: نحن نظن أننا نستطيع أن نثبت أن كلامهم قد جاء مجزوء لغاية في أنفسهم. ولابد من توضيح الصورة على كليتها وليس اجتزاء مقتطفات كما يحلو لمن أراد تسويق فكرة محددة في ذهنه. لذا علينا أن نحاول أن نطرح الموضوع كله للنقاش، فلا نترك سؤالا غير مجاب عليه، لأن ذلك سيكون منفذا للمتشككين إذا ما أرادوا تمرير رأيي عقائدي مسبق.

فالله وحده نسأل أن يهدينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق.

أما بعد

السؤال: هل فعل حزن أبو بكر في الغار؟

رأينا المفترى: نعم

السؤال: هل كان أبو بكر من أولياء الله عندما حزن؟

رأينا المفترى: كلا، لأنه لو كان كذلك (أي لو أنه كان من أولياء الله) لما حزن، لأن أولياء الله لا يحزنون.

وانظر – إن شئت- في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]

السؤال: لماذا إذن انتهت الخلافة إلى أبي بكر؟ هل في ذلك خير للمجتمع الإسلامي حينئذ؟ وهل في ذلك خير لنا (نحن المسلمين) حتى يرث الله الأرض ومن عليها؟

جواب مفترى: نعم، كان الخير كل الخير في وصول أبي بكر إلى الخلافة من بعد وفاة النبي. وقد كان ذلك تدبيرا من النبي الكريم نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟ ألم تقل أن أبا بكر لم يكن من أولياء الله عندما حزن في الغار؟

جواب: بلى.

السؤال: وكيف الخروج من هذا المأزق الذي وضعت نفسك فيه؟ ربما يسأل البعض مستغربا.

رأينا: لا نظن أن ذلك مأزق بل هو فهمنا للقصة كما حصلت بغض النظر عن عقائدنا المسبقة. فأنا شخصيا أبحث عن الحقيقة حيثما وجدت، ولا أجد أن من واجبي أن أبحث عن دليل لأثبت موقف طرف ما ليتغلب على الطرف الآخر. فأنا شخصيا لست في خصومة مع أحد بالرغم أني خصم للجميع. لأن الباحث عن الحقيقة بأدوات البحث العلمي الموثوقة لا يتردد بأن ينتقد الجميع لأن هدفه ليس إثبات أحقية طرف على طرف آخر، بل استجلاء الحقيقة بغض النظر عن من يملكها. لذا نحن نتحدى أن يكون في كلامنا هذا تأييد لطرف ما على طرف آخر بقدر ما هو دليل على بطلان دعوى الجميع. فلو أُعطينا المساحة من التفكير لعرض وجهة نظرنا لربما استطعنا أن نبين للجميع وجهة نظرنا التي تظهر (إنْ صحت) مقدار الغلط (كما نفهمه) الذي وقعت به جميع الأطراف حتى الساعة، والذي نظن أنه هو السبب الحقيقي في الفرقة الحاصلة بين جميع الفرق التي تدعي أن الإسلام هو دينها.

السؤال الأول: كيف يمكن أن نفهم ما حصل فعلا.

أما بعد،

لا شك عندنا أن سيرة أبي بكر الصديق في مكة قبل الهجرة كانت تظهر الدعم غير المحدود لمحمد. فهو أول من صدّق النبي الكريم عندما كذّبه أكثر الناس قربا منه كآله (العباس وأبو طالب وأبو لهب) وكعشيرته الأقربين (بنو هاشم)، وكل قريش (أبو جهل وأبو سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهم). كما أن أبا بكر كان أكثر من ساند النبي الكريم بماله بعد أن بخل به عليه الغالبية العظمى من أهل مكة (بالمقاطعة مثلا). فتحمل أبو بكر من أعباء الدعوة ما لم يتحمله صحابي آخر. وكانت شهادة أبي بكر برسالة النبي في تلك الفترة لا يمكن أن تساويها شهادة غيره. ولعلي أجزم الظن أن لا أحد يستطيع أن يشكك بمثل هذه الافتراءات التي نسوقها حتى اللحظة بخصوص سيرة أبي بكر في مكة بغض النظر عن طائفته التي ينتمي إليها. فحتى الكافرين الجاحدين بدين محمد لا ينكرون سيرة أبي بكر في مكة قبل الهجرة.

وفي ضوء هذه الحقائق التي تبرز سيرة أبي بكر في مكة قبل الهجرة، كان قرار النبي أن يصاحبه في هجرته إلى المدينة، وبالفعل يخرج النبي مع صاحبه أبي بكر سرا، ويمكثان في الغار فترة من الزمن، وفي تلك الأثناء يخرج نفر من أهل مكة (ربما كما شاهدنا في فلم الرسالة وإن كنت لا أثق بتفاصيل الإخراج التلفزيوني والسينمائي للقصة) يبحثون عن النبي وصاحبه، وكان غرضهم هو ما تثبته الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]

ويحصل أن يكون القوم قاب قوسين أو أدنى من الظفر بمحمد عند الغار. وهنا بالضبط يحصل الحزن من طرف أبي بكر الصديق، بدليل أن النبي هو من نهى أبا بكر من أن يحزن:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

السؤال: لماذا حزن أبو بكر في الغار؟

جواب: لأن أبا بكر لم يكن حينها من أولياء الله.

السؤال: ما معنى ذلك؟

باب الحزن

نحن نظن أنه عندما كان أبو بكر في الغار لم يكن بعد قد اتبع هدى الله لأن من اتبع هدى الله فلا يحزن:

- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:38]

كما نظن أن أبا بكر لم يكن من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعمل صالحا كما يجب لأن من كانت تلك سيرته فلا يحزن:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]

ونحن نظن أن أبا بكر لم يكن قد أسلم وجهه لله وهو محسن لأن أولئك لا يحزنون:

- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:112]

ونحن نظن أن أبا بكر لم يكن من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله ثم لم يتبعوا ما أنفقوا منا ولا أذى لأن من فعل ذلك لا يحزن:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: 262]
- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: 274]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: 277]

ونحن نظن أيضا بأن أبا بكر لم يكن من المؤمنين لأن هؤلاء لم يكونوا ليحزنوا:

- ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة 69]

ونظن أن أبا بكر قد حزن على ما فاته عندما كان في الغار:

- ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]

ونحن نظن أنا أبا بكر لم يكن من الفرحين المستبشرين باللذين لم يلحقوا بهم من خلفهم لأن هؤلاء لا يحزنون:

- ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران: 170]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما يكون قد أحزنه الذين يسارعون في الكفر (كما أحزن ذلك النبي نفسه):

- ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران: 176]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

نحن نظن أن أبا بكر ربما قد أحزنه ما قاله الكافرون (كما أحزن النبي نفسه):

- ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]
- ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾ [يس: 76]

نحن نظن يقينا بأن أبا بكر لم يكن من المرسلين لأن هؤلاء لا يحزنون:

- ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام: 48]

كما نظن أن أبا بكر لم يكن في الغار من الذين اتقوا وأصلحوا لأن هؤلاء لا يحزنون:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ [الأعراف: 35]

ونحن نظن أن أبا بكر في الغار لم يكن بعد مؤهلا لأن يكون من الذين سيدخلون الجنة لأن هؤلاء لا يحزنون:

- ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 49]

ونحن نظن أن أبا بكر لم يكن من أولياء الله وهو في الغار لأنه حزن:

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما كان يحزنه قوله:

- ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس: 65]

كما نظن أن أبا بكر ربما كان ينتابه شعور كشعور يعقوب على فراق ولده يوسف، فيعقوب نفسه قد أصابه الحزن:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]
- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما شكا حزنه لكنه لم يشكو بثه:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86]

كما نظن أن أبا بكر ربما كان ينتابه شعور بالحزن على الآخرين (كما فعل النبي نفسه):

- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: 88]
- ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: 127]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما انتابه شعور بالحزن كالذي حصل لمريم ابنت عمران عندما وضعت وليدها في تلك الليلة:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما انتابه شعور بالحزن كالذي حصل مع أم موسى عندما فقدت ولدها:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]
- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7]
- ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [القصص: 13]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما كان سيحزنه الفزع الأكبر (لو حصل) وهو لازال في الغار:

- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103]
- ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: 127]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما كان عدوا وحزنا للكافرين حينئذ:

- ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص: 8]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما انتابه الشعور بالحزن كما انتاب لوطا عندما كان في ورطة مع قومه:

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

ونحن نظن أن ما كان يحزن أبا بكر ربما هو كفرهم:

- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾ [لقمان: 23]

نحن نظن أن الحزن الذي أصاب أبا بكر وهو لازال في الغار ربما يكون مشابها للحزن الذي أصاب بعض أزواج النبي:

- ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: 51]

نحن نظن أن الحزن الذي أصاب أبا بكر ربما أذهبه الله، لأن ذلك أمرا واردا:

- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: 34]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما يكون من الذين نجاهم الله بمفازتهم لم يمسهم السوء عندما أذهب الله عنه الحزن:

- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: 61]

ونحن نظن أن أبا بكر ربما لم يكن من الذي تنزلت عليهم الملائكة لكي لا يحزنوا:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: 30]

ونحن نظن أن النبي كان ينهى أبا بكر عن الحزن (ربما) حتى يكون من عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون:

- ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: 68]

ونحن نظن أن النبي ربما نهى أبا بكر عن الحزن لكي تتم استقامته بعد ذلك:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: 13]

وأخيرا، وهو الأهم، نحن نظن أن الحزن الذي أصاب أبا بكر في الغار كان نجوى من الشيطان:

- ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: 10]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحزن هو عبارة عن شعور سببه الشيطان، يصيب الذين لازال إيمانهم غير يقيني، وذلك بسبب حادثة أو ظرف محدد بعينه.

السؤال: كيف ينطبق ذلك على أبي بكر الصديق في الغار؟

رأينا: نحن نظن أنه ما أن وجد أبو بكر الصديق نفسه في الغار مع النبي الكريم يتهدده الخطر الخارجي، حتى أصابته بعض النجوى من الشيطان، فكان ذلك هو ما سبب الحزن عنده. ولكن لماذا؟

رأينا: عندما كان أبو بكر لازال في مكة من أشرافها، لم يكن يتهدده خطر حقيقي قد يودي بحياته، وقد كان تصديقه لمحمد من باب صدق محمد نفسه، فأبو بكر يعرف سيرة محمد في مكة قبل البعثة، ويعرف شخصية محمد تماما، فقد عهده صادقا لا يكذب، أمينا لا يخون، كما كان يعرف فيه رجاحة العقل والفكر، فلا يهجر، لذا كان إتباعه لمحمد من باب حسن الصحبة، فكان صاحبه. وكفى.

ولكن ها هو الآن في الغار مع محمد، محاصر لا يستطيع أن يرفع صوته خوفا من أن يسمعه القوم في الخارج، ولا يستطيع أن يخرج من الغار لقضاء حاجته حتى لا يراه الناس، فيتمكنوا منه ومن صاحبه، وهو ... وهو...، الخ. هل تظن – عزيزي القارئ- أن أبا بكر كان سيسلّم تماما بالوضع الذي هو فيه.

رأينا المفترى: هنا في هذه اللحظة وتحت هذه الظروف القاسية دخل الشيطان بالنجوى (الكلام الخفي في النفس) لأبي بكر في الغار. فأخذ أبو بكر يحدّث نفسه (نحن نتخيل) بجدية الموقف الذي وضع نفسه فيه مع صاحبه محمد، وأخذ يتساءل في نفسه، ربما قائلا: هل فعلا أن محمدا رسول من الله؟ وإذا كان كذلك، لم لا ينصره الله على هؤلاء؟ هل إله محمد قوي؟ هل يستطيع أن يدافع عن نفسه وعن نبيه؟ الخ.

لعلي أجزم الظن بأن مثل هذه التساؤلات قد أخذت تدور في خلد أبي بكر في تلك اللحظة في الغار، وكان ذلك ليس أكثر من نجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا. ولو تدبرنا ما قاله النبي لأبي بكر في تلك اللحظة كما جاء بنص الآية الكريمة نفسها:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]

لوجدنا أن النبي لم يكن غافلا عما كان يدور في خلد أبي بكر حينئذ. فكيف كانت ردة فعل النبي حينها؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن النبي الكريم (وهو الذي لا ينطق عن الهوى مادام أنه وحي يوحى) قد أدرك على الفور ما كان يجول في خاطر أبي بكر الصديق في تلك اللحظة في الغار، فجاء رده شافيا على ما أصاب أبا بكر في تلك اللحظة، فصور له حالته (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ)، وطمأنه عندما أذهب عنه الحزن (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا). ويكأن النبي الكريم (نحن نحاول أن نفهم) يقول لصاحبه: أعلم ما يدور في خلدك يا أبا بكر، وأعلم أن النجوى من الشيطان قد أصابتك فأحزنتك، وأعلم أنك تتساءل عن صدق هذه الدعوى، وأعلم أنك تبحث عن الإله الذي أطلب من الناس أن يؤمنوا به، فهو معنا، وهو لا محالة ناصرنا، ولا يحزنك ما نحن فيه من الضعف الظاهر. ولكن (نحن نتخيل النبي الكريم يقول لأبي بكر) سأقدم لك – يا صاحبي- الآن الدليل العملي الذي يثبت لك أننا منصورون من الله. وأن الله مؤيدنا، وأن الله لن يخذلنا. وبالفعل قدم النبي الكريم لصاحبه في الغار ذلك الدليل الذي اذهب عنه الحزن وجعله من المستبشرين بنصر الله.

ومنذ تلك اللحظة (نحن نفتري القول) تغيرت سيرة أبي بكر الإيمانية تماما، لأن النبي الكريم أراه في الغار شيئا لم يره غيره، وكان ذلك سببا – كما سنرى بعد قليل بحول الله وتوفيق منه- لأن يكون أبو بكر الصديق هو الرجل الثاني في رسالة الإسلام بعد النبي مباشرة.

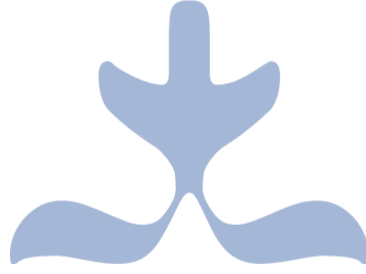
التساؤلات:

- ⇐ كيف علم النبي بما كان يجول في خاطر أبي بكر حينئذ؟
- ⇐ ما الذي فعله النبي لطمأنة أبي بكر؟
- ⇐ ما الذي أراه النبي لأبي بكر؟
- ⇐ كيف كان ذلك دليل على انتصار هذا الدين؟
- ⇐ كيف غيرت هذه الحادثة سيرة الصديق الإيمانية تماما؟
- ⇐ ما علاقة هذا بحادثة الإفك؟
- ⇐ ما علاقة هذا بخلافة أبي بكر الصديق؟
- ⇐ كيف كان في ذلك خيرا للمسلمين حينئذ؟
- ⇐ كيف كان في ذلك خيرا للمسلمين على مر التاريخ؟
- ⇐ الخ.

هذه بعض التساؤلات التي سنتناولها (بحول الله وتوفيقه) في الجزء القادم من هذه المقالة.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما إنه هو الواسع العليم.

اللهم أعوذ بك أن أكون قد افتريت عليك الكذب أو أن أكون قد قلت ما ليس لي بحق، وأسألك وحدك أن تعلمني ما لم أكن أعلم وأن تهديني لأقرب من هذا رشدا وأن تزدني علما.



حديث الإفك

الجزء الخامس

كيف كان النبي نفسه مستهدفا في حديث الإفك؟



الجزء الخامس: كيف كان النبي نفسه مستهدفا في حديث الإفك؟

انهينا الجزء السابق من بطرح التساؤلات التالية حول حديث الإفك:

- ⇐ كيف علم النبي بما كان يجول في خاطر أبي بكر في الغار؟
- ⇐ ما الذي فعله النبي لطمأنة أبي بكر هناك؟
- ⇐ ما الذي أراه النبي لأبي بكر؟
- ⇐ كيف كان ما رأى أبو بكر في الغار دليلا على انتصار هذا الدين؟
- ⇐ كيف غيّرت هذه الحادثة سيرة الصديق الإيمانية تماما؟
- ⇐ ما علاقة هذا بحادثة الإفك؟
- ⇐ ما علاقة هذا بخلافة أبي بكر الصديق؟
- ⇐ كيف كان في ذلك خيرا للمسلمين حينئذ؟
- ⇐ كيف كان في ذلك خيرا للمسلمين على مر التاريخ؟
- ⇐ الخ.

وقد كان جلّ النقاش حينئذ منصبا على موضوع علاقة أبي بكر الصديق بحديث الإفك؛ فقد افترينا سابقا الظن من عند أنفسنا أن بعض الذين شاركوا في حديث الإفك كانوا من المسلمين الذين لم يدخل الإيمان بعد في قلوبهم (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)، فكان لمثل هؤلاء بعض الأطماع الدنيوية من وراء استغلال حديث الإفك لتحقيق مآرب ومكاسب خاصة بهم. وكان جل غرضهم (كما افتريناه سابقا) هو إزاحة أبي بكر الصديق عن الواجهة حتى لا يكون هو الخليفة الأول بعد وفاة النبي الكريم بالموت، فقد كان جل ترتيبهم (كما نتخيله) هو أن تخلو لهم الساحة للظفر بذلك المنصب (أي الخلافة). فهم إذن من أصحاب السيادة في قومهم، وهم ممن اعتاد أن يكون في عِلية القوم، فهو من لا يستطيع أن يرى غيره (كأمثال أبي بكر) في هذه المكانة. وذلك لأنه ربما لم يكن يخفى على الداني والقاصي حينئذ أن أبا بكر هو الرجل الأول المؤهل ليخلف النبي بعد موته. فكان تخطيط بعض من شارك في حديث الإفك يتمثل (كما نزعم) في أن إثبات حديث الإفك على عائشة يعطي المبرر الكافي لأبي بكر أن لا يضع نفسه في هذا الموقف، لأن ابنته ستكون حينها (كما تفهم الأعراب) وصمة عار في جبينه لو ثبت بحقها حديث الإفك.

لكن، لمّا كان الله هو مولى النبي وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرا كان حديث الإفك بحد ذاته خيرا للمؤمنين في كل وقت وحين، وكانت واحدة من جوانب الخير في ذلك (نحن نفتري الظن) هو إثبات أحقية أبي بكر الصديق في الخلافة، وذلك للمنطق البسيط التالي: مادام أن حديث الإفك قد كشف زيغ قلوب كثير من الناس، وما دام أن أحدا لم يستطع النيل من شرف أبي بكر، لذا لن يكون هناك ما يمنع أن يتولى أبو بكر الخلافة من بعد وفاة الرسول بالموت لأنه هو الأحق والأجدر بها.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا كان أبو بكر هو الأحق وهو الأجدر بالخلافة؟

رأينا: نحن نظن أن أحقية أبي بكر بالخلافة قد جاءت من تاريخ مناصرته لدعوة النبي منذ بدايتها وحتى نهايتها، أما جدارته بالأمر فهي تتأتى من شخصية أبي بكر الصديق المؤمنة يقينا بنصر الله، فكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن أن شخصية أبي بكر الصديق كانت الشخصية الأقوى إيمانيا من بعد النبي محمد نفسه، فليس هناك (في كل المجتمع المسلم حينئذ) شخص يتمتع بالقوة (أي الثبات الإيماني) كمثل أبي بكر الصديق، فكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: تبدأ جذور القصة التي حاولنا أن ننثر حروفها الأولى في الجزء السابق في حادثة الغار التي تصورها الآية الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]

وقد حاولنا تسويق ظننا أن أبا بكر الذي دخل في الغار مع النبي في هجرته إلى المدينة هو شخص يختلف عن أبي بكر الذي خرج منه، وذلك لأن حدثا عظيما حصل له هناك فغيّر (نحن نفتري الظن) مجرى حياته الإيمانية كلها. فكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: لقد زعمنا الظن أنه ما أن وجد أبو بكر نفسه مع صاحبه في الغار حتى بدأ الرجل يراجع في نفسه (من باب النجوى) موقفه في الغار، وذلك لأنه كان يرى بأم عينه حالة الضعف الظاهري الذي أصابه من صاحبه محمد. فبدأ الشيطان يدخل له من باب النجوى:

- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: 10]

فحصل الحَزن عند أبي بكر، فما عاد أبو بكر من أولياء الله الذين هم لا يحزنون:

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: 62]

ولمّا كان النبي محمدا مراقبا يقظا لما أصاب أبا بكر في الغار، جاء رده على ما كان يدور في خلد أبي بكر من النجوى شافيا في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]

ولو تدبرنا جيدا ما جاء فيها، لوجدنا أن رد النبي يتلخص في الأمرين اللذين كان يقلقان أبا بكر حينها وهما:

1. الضعف الإيماني الذي أصاب أبي بكر، أي الحزن
2. الإجابة على التساؤل الذي كان يدور في خلد أبي بكر وهو: هل فعلا أن الله (رب محمد) معنا؟

فجاءت الآية الكريمة لتصور ذلك أحسن تصوير (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ)، ويكأن محمد (نحن نفتري القول) يقول لأبي بكر: لا تحزن يا أبا بكر، فلا داعي أن يضعف إيمانك في هذه الساعة لأن ما تراه بعينك ليس هو الواقع الحقيقي لما نحن فيه، وذلك لأن الله (الذي تتساءل عنه في هذه اللحظة في نفسك) معنا (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

ف يتفاجأ الصديق (نحن نتخيل) من جواب صاحبه محمد الذي يعرف صدقه وعزيمته، لكن هذا الأمر لم يكن ليوقف حزن الصديق تماما. فما يكون من النبي الكريم الذي يأتيه التأييد من ربه مباشرة إلا أن أثبت لصاحبه الصديق في الغار وفي تلك اللحظة بالذات صدق دعوته بالدليل العملي بأن الله معهما.

السؤال: ما الذي فعله محمد ليذهب عن الصديق حزنه؟
للإجابة على هذا التساؤل لابد بداية من تقديم جملة من الافتراءات الأولية، نذكر منها:

1. يمكن للحزن أن يذهب عن من أصابه:

- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: 34]

2. النجاة تكون للمتقين، والله هو من ينجي الذي اتقوا حتى لا يمسهم السوء ولا يحزنون:

- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: 61]

3. النجاة تكون لمن قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ولا شك سيذهب الحزن متى ما تنزلت الملائكة على الذين استقاموا:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: 30]

4. لا شك أن من ذهب عنه الحزن هم من عباد الله، وهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا:

- ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: 68]

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: 13]

السؤال: هل فعلا ذهب الحزن عن أبي بكر في الغار؟ وكيف حصل له ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نعم، ذهب الحزن عن أبي بكر لأن السكينة تنزلت هناك. واقرأ – إن شئت- الآية التي تتحدث عن صحبة النبي لأبي بكر في الغار مرة أخرى:

- ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

تساؤلات

- ⇐ ما هي السكينة التي تنزلت في الغار؟
- ⇐ ومن الذي تنزل بها على محمد هناك؟
- ⇐ ولماذا تنزلت هناك؟
- ⇐ وما فائدة أن تتنزل السكينة على وجه التحديد على النبي هناك؟
- ⇐ وكيف كان وقع ذلك على أبي بكر؟
- ⇐ وما علاقة ذلك بذهاب الحزن عنه؟
- ⇐ وما فائدة ذلك كله في خضم حديثنا عن جدارة أبي بكر بالخلافة بعد النبي الكريم؟
- ⇐ الخ.

رأينا: نحن نظن بداية أن السكينة هي شيء مادي ملموس يمكن أن يشاهد بأم العين. ويمكن للناظر أن يراه رأي العين.

الدليل

دعنا نبحث عن الدليل بطرح التساؤل التالي: أين ومتى أنزل الله سكينته في غير هذا الموضع؟

جواب: في المواقف التالية:

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: 26]
- ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: 26]
- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: 4]
- ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: 18]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لو تدبرنا جميع هذه السياقات القرآنية، لوجدنا (نحن نفتري الظن) بأن السكينة تنزل كمقدمة للنصر، فمتى نزلت السكينة فقد جاءت البشرى بالنصر للمؤمنين، لأن الله مؤيدهم بها وبجنود لا يرونها. والهدف هو أن يجعل اللهُ كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا. وهذا بالضبط ما حصل في الغار، فالله أنزل السكينة على رسوله هناك وأيده بجنود لا نراها ليجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى ولتبقى كلمةُ الله هي العليا:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

السؤال: وكيف نزلت السكينة؟

رأينا: لو تدبرنا السياق القرآني الذي يتحدث عن السكينة التي جاءت الفئة القليلة وهم جنود طالوت وكان فيهم داوود مقابل الفئة الكثيرة الباغية بقيادة جالوت لوجدنا في نزول السكينة العجب:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

لتكون النتيجة التي نجهد أنفسنا لافترائها هي: أن السكينة شيء مادي ملموس يأتي الفئة المؤمنة في أحلك الظروف كمقدمة للنصر على الكافرين، عندما يُزَلزل الذين آمنوا حتى يكادوا أن يصلوا إلى حد اليأس من النصر، فلا يبقى أمامهم إلا طريقا واحدا، وهو التأييد الإلهي المباشر:

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]

نتيجة مفتراة: هناك في الغار كان يتساءل أبو بكر الصديق (نحن نتخيل) عن نصر الله بعد أن زُلزل في الغار، لأنه ما عاد هناك طريق للنصر إلا التدخل الإلهي المباشر، وهذا في ظننا ما حصل فعلا على أرض الواقع، فقد أنزل الله سكينته هناك وأيد رسوله الكريم بجنود لا نراها، فاطمئن قلب أبي بكر للنصر، فخرج من الغار موقنا أن الله لا محالة ناصر رسوله والذين آمنوا معه. فما عاد أبو بكر يخشى من قوة أخرى على الأرض، وما عاد يهاب أي عدو مهما بلغت عدته، لأن هناك تأييد سماوي أكبر من هذا كله، خاصا بالمؤمنين الصادقين الذين يثبتوا على إيمانهم عندما تخور قوة الآخرين. أما عن الآلية التي حصل فيها ذلك كله فهذا

ما سنتحدث عنها بالتفصيل عندما نكمل حديثنا في قصة داود وولده سليمان في مقالتنا تحت عنوان: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدني علما، إنه هو الواسع العليم – آمين.

افتراء خطير: لقد كان النبي الكريم يعلم ما أصاب أبا بكر في الغار، وكان يعلم ما حصل له عندما نزلت السكينة في الغار، ويعلم كيف أصبح هذا الجانب القوي من شخصية أبي بكر بعد حادثة الغار هذه، لذا كان يعلم يقينا أن هذه الشخصية هي المناسبة أن تخلفه مباشرة بعد وفاته بالموت، لأن الخطر على الدين من الذين سينقلبوا على أعقابهم حينئذ سيكون شديدا، لذا لابد أن يتولى الأمر شخص لا تأخذه في الله لومة لائم، شخص يكون ذو قوة إيمانية ثابتة مهما بلغت قوة عدوه المادية الظاهرة للعيان. ولا أظن أن أحدا يناسب هذا الموقع أكثر من رأى سكينة من ربه تتنزل عليه – إنه الصديق.

السؤال: ما علاقة هذا بحديث الإفك؟

رأينا: عندما نزلت التبرئة الإلهية لشرف أبي بكر من السماء، وعندما أصبح المتربصون بأبي بكر لا يستطيعون الإيقاع به من هذا الجانب، ولمّا أصبح المسلمون جميعا (حتى من لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد) مدركون أن أبا بكر هو الشخص الأول المؤهل للخلافة بعد وفاة النبي، أخذ النبي الكريم يأمر الناس بأن يؤمهم أبو بكر في الصلوات، واستمر في ذلك حتى في أيام مرضه الأخيرة قبل انتقاله للرفيق الأعلى. لذا توفى الله نفس النبي الكريم بالموت بعد أن أسند النبي أمر الخلافة من بعده لأبي بكر الصديق لأنه هو الرجل الأجدر بأن يتولى أمر المنافقين الذين سيرتدوا على أعقابهم بعد موت النبي.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لو دققنا بالرواية التاريخية لما حصل بعد وفاة النبي مباشرة، لوجدنا أن الغالبية الساحقة من المسلمين الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم قد ارتدوا عن دينهم بحجة عدم دفع الزكاة، كما نجد في الوقت ذاته أن كل المنافقين الذين كانوا يظهرون قليلا من الإيمان ويبطنون كثيرا من الكفر قد تكشفت نواياهم وبانت خططهم للإيقاع بهذا الدين وأهله، فظهر من بينهم من ادعى الرسالة كذبا. والتف حول هؤلاء جند كثيرون، فكان لابد لمن يتسلم زمام الحكم بالخلافة أن يقف بحزم في وجههم جميعا. فما الذي حصل فعلا؟ وكيف كانت ردة فعل من بقي على إسلامه من المؤمنين الصادقين؟

جواب: لعل الرواية التاريخية تجمع لنا أن كل المؤمنين حقا (حتى من عُرِف عنه الشدة والحزم كالفاروق عمر) قد خارت قواهم جميعا، فهذا عمر يشير برأيه على أبي بكر الصديق بمهادنة بعض المرتدين والتنازل عن دفعهم الزكاة، ولعل الغالبية الساحقة من المؤمنين كانت تؤيد رأي عمر حينئذ، وذلك لشدة الخطر الذي يرونه بأم أعينهم على هذا الدين إن هم دخلوا في قتال مع هؤلاء المرتدين. لكن كان هناك شخص واحد (من بين الجموع كلها) هو من تبيّن أنه لا يهادن ولا تأخذه في دين الله لومة لائم، شخص واحد تبين أنه هو الأقوى على الإطلاق، لقد كان أبو بكر الصديق هو من قهر المرتدين جميعا بإيمانه الذي كان

أشد رسوخا من الجبال الراسيات. لقد كان هو فقط من كان مؤمنا حقا بأن هذا الدين مؤيد من السماء، وهو فقط من كان مؤمنا حقا أن ليس على وجه الأرض قوة مهما بلغت بالعدد والعدة قادرة أن تقف في وجه من يحمل هذه العقيدة في قلبه. لقد كانت السكينة التي نزلت في الغار هي (نحن نفتري القول) من ثبتت أبا بكر الصديق يوم أن خارت قوى الجميع من حوله بمن فيهم الفاروق عمر.

السؤال: ألم يكن في حديث الإفك خير للمسلمين إلى يوم الدين إذن؟ من يدري؟!!!

السؤال: من الذين كانوا يتعاونون على الإطاحة بأبي بكر الصديق حتى لا يصل إلى الخلافة؟ أو – لنقل- من هم الذي اشتركوا في حديث الإفك لتحقيق مطامعهم بالخلافة ليتمكنوا من إزاحة الصديق عن المشهد؟

جواب مفترى: لو دققنا جيدا في الرواية التاريخية في حادثة الإفك والرواية التاريخية في الذي حصل مباشرة في سقيفة بني ساعده بعد وفاة الرسول الكريم بالموت مباشرة لوجدنا أن الحاضر في الموقفين هو شخص واحد بعينه: إنه سعد بن عباده.

الدليل

لنرجع فنرى ما سطرته كتب أهل العلم عن حادثة الإفك والذي تعرضنا له في الجزء الثالث من هذه المقالة في رواية الطبري، لنجد النص التالي:

... فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا , فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله , ثم قال : " من يعذرني ممن قد بلغني أذاه في أهلي ؟ " يعني عبد الله بن أبي ابن سلول , وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر أيضا : " يا معشر المسلمين , من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا , ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا , وما كان يدخل على أهلي إلا معي ! " فقام سعد بن معاذ الأنصاري , فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله , إن كان من الأوس ضربنا عنقه , وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك , فقام سعد بن عبادة , فقال , وهو سيد الخزرج , وكان رجلا صالحا , ولكن احتملته الحمية , فقال : أي سعد بن معاذ , لعمر الله لا تقتله , ولا تقدر على قتله ! فقام أسيد بن حضير , وهو ابن عمة سعد بن معاذ , فقال لسعد بن عبادة : كذبت , لعمر الله لنقتلنه , فإنك منافق تجادل عن المنافقين ! فثار الحيان : الأوس والخزرج , حتى هموا أن يقتتلوا , ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر , فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا...

... فقام سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله , نرى أن نضرب أعناقهم ! فقام رجل من الخزرج , وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل , فقال : كذبت , أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم ! حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج في المسجد شر...

ولو حاولنا أن نربط ما حصل هنا في حديث الإفك من سعد بن عبادة مع ما فعل بشأن الخلافة في سقيفة بني ساعده، لوجدنا أن الرجل لم يكن ليخفي مطامعه في الخلافة من بعد النبي محمد. ولو دققنا في الأمر أكثر لوجدنا أن الذي تصدى له على الفور في سقيفة بني ساعده هو أبو بكر الصديق نفسه عندما ذهب إلى هناك يصحبه عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح. فقد أسرع الثلاثة إلى هناك والرسول لازال ممدا بين ظهرانيهم لم يدفن بعد ليجدوا أن نفرا من الأنصار قد بايعوا سعدا على الخلافة هناك. فما الذي حصل حينها؟ فلماذا لم تنتهي الخلافة إلى سعد؟ ولماذا تراجع سعد عن موقفه؟ ولماذا انتهت إلى أبي بكر هناك؟ فمن الذي أوقف سعد بن عباده عند حده؟

رأينا المفترى: إنه الصديق. نعم أبو بكر (نحن نفتري الظن) هو من فعل ذلك.

السؤال: وكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: لو عدنا إلى حادثة الإفك نفسها وحاولنا تدبرها مرة أخرى، لوجدنا أن فيها شيئا (نظن أنه) عجبا، وهو موقف أبي بكر نفسه من حديث الإفك. فكيف كان موقفه؟

رأينا: بالرغم أن حديث الإفك كان يقدح بشرف الرجل مباشرة عن طريق ابنته عائشة، إلا أن معظم كتب أهل العلم (إن لم يكن جلها) لا تكاد تذكر شيئا عن ما فعله الرجل حينها. فلقد ظل الرجل صامتا لا يحرك ساكنا بالرغم من دماء الأعراب تجري في عروقه. فالمعروف لدى الجميع أن العربي لا يسكت متى ما تم القدح بشرفه، فالثأر هو سبيله بواحد من اتجاهين: إما أن يقتل من ألحقت العار بشرفه إن ثبت الاتهام الموجه لها، أو أن ينتقم من الذي تعرض لشرفه إن ثبت بطلان التهمة الموجه لها. لكن الغريب في هذه الحالة هو أننا لا نجد في كتب أهل العلم أن أبا بكر قد ذهب بأي من الاتجاهين، فهو لم يقتل ابنته التي كانت السبب في حديث الإفك وهو لم ينتقم من الذين روجوا لهذا الحديث بعد أن ثبت بالوحي الإلهي بطلانه. فلماذا؟

رأينا: لأن تصرف أبي بكر الصديق كان نسخة طبقة الأصل عن تصرف النبي الكريم نفسه، فهما معا كانا يعلمان الحكمة الحقيقية من وراء حديث الإفك، وأن في هذا الحديث خير للأمة بأكملها وليس فيه شر للمؤمنين إطلاقا لأنه سيفضح حقيقة كل من ادعى أن الإسلام دينه في ذلك الحين وفي كل حين.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن عقيدة النبي الكريم وأن عقيدة أبي بكر الصديق من بعده كانت راسخة بأن حديث الإفك هذا موجّه لشخص النبي ولشخص أبي بكر من خلال ما يربط بينهما وهي عائشة، وهو حديث مدبّر من قبل فريقين من الناس وهم:

(1) من كانت في قلوبهم مطامع دنيوية بالخلافة و

(2) من كان في قلوبهم حقدا على هذا النبي الكريم والدين الذي جاء به.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب: دعنا نحاول الوصول إلى الإجابة من خلال السؤال المعاكس التالي: ما الذي كان سيحصل لو أن سعد بن عبادة مثلا قد وصل إلى الخلافة بعد وفاة الرسول بالموت؟

جواب مفترى خطير جدا: سيصيب الدولة الإسلامية الناشئة الضعف والهزل وربما الزوال وذلك لأن سعد بن عبادة لن يكون قادرا على مواجهة المرتدين وخصوصا أهل النفاق منهم وذلك لأن لهم في رقبته دينا لابد من سداده. فهم الذين سيحاولون أن يمنّوا على الرجل بأنهم هم من أوصلوه إلى سدة الحكم عندما ساعدوه على الإطاحة بأبي بكر الصديق.

السؤال: وكيف ذلك؟

للإجابة على مثل هذا التساؤل، نجد أن الضرورة تستدعي طرح التساؤل الآخر التالي: ما الذي فعله الصديق عندما وصل إلى سقيفة بني ساعده وبرفقته ابن الخطاب وابن الجراح؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن الصديق لم يكن ليتردد أن يذكّر سعد بن عبادة بما حصل في حديث الإفك، ولم يكن ليتردد أن يذكر له بالاسم (لا بل ويشير بالبنان إلى) جميع من شاركوا فيه، وكيف حصل بجميع تفاصيله، ومن الذي دبّره وتولى كبره منهم، ومن الذي ساعد في تدبيره، وما الغاية المرجوة التي كانت عند كل فريق منهم من ترويجه بين الناس.

السؤال: كيف فعل الصديق ذلك؟

رأينا: ما أن تقابل الصديق مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعده في جمع من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار (وحضور بعض من شارك في حديث الإفك) حتى كانت الصراحة التامة هي سيدة الموقف، فكان أبو بكر هو من يمسك بالورقة الرابحة التي تضع الأمور في نصابها الصحيح، وذلك (نحن نفتري القول) لمعرفته المسبقة بتفاصيل حديث الإفك. ولعلي أجزم القول بأن الصديق قد هدّد سعد بن عباده بفضح الأمر كله على الملأ ونشر القصة الحقيقية والأشخاص الذين تورطوا بها جميعا مع مخططاتهم المسبقة بالدليل الذي لا يمكن رده. ولعل النقطة الأقوى التي أثارها الصديق حينها هو تذكير سعد بن عباده بأنه قد وضع يده بيد شخص آخر معروف النفاق بين المسلمين وهو من تولى كبره من الذين دبروا حديث الإفك كما نصت على ذلك الآية الكريمة نفسها:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

ولمّا وجد سعد بن عبادة نفسه (نحن لازلنا نتخيل) في موقف ضعيف لا يستطيع أن يقاوم حجة الصديق، ولما كان سعد بن عباده من المؤمنين (وإن كان من أصحاب المطامع الدنيوية) رجع إلى رشده، فانتقلت الخلافة إلى أبي بكر بكل يسر وسهولة. والملحوظ الذي لا يجب أن نغفل عنه هنا هو أن سعدا (الذي كان يتذرع بحق الأنصار في الخلافة) لم يعد ليطلب حقا فيها حتى بعد وفاة أبي بكر وانتقالها إلى الفاروق عمر. فلماذا؟ من يدري؟!!!

الدليل

دعنا نرجع إلى حديث الإفك بالتساؤل التالي: لماذا كان السكوت فترة طويلة جدا (قرابة الشهر من الزمن) هو موقف النبي الكريم وصاحبه؟

رأينا: لابد لكل من يتعرض لحديث الإفك أن يطرح جملة من التساؤلات حول ردة فعل النبي في حديث الإفك، نذكر منها:

- لماذا سكت النبي فترة طويلة من الزمن؟
- لماذا تأخرت تبرئة عائشة؟
- لِم لم ينزل وحي السماء مباشرة لتبرئتها؟ هل يحتاج رب السموات والأرض إلى كل هذا الزمن ليعلم براءة المرأة من التهمة الموجهة إليها؟! أم هل يحتاج من سيوصل الرسالة (كالوحي) إلى كل هذا الوقت ليصل بها إلى الناس فيعرفونها؟ من يدري؟!
- لِم لم يُقِم النبي الكريم الحد على عائشة مادام أن عصبة من الرجال هم من جاءوا بالإفك؟
- لِم يقم النبي الكريم الحد على هؤلاء العصبة عندما نزلت تبرئة المرأة من السماء؟
- الخ.

السؤال المربك لنا: ألم يكن من واجب النبي الكريم أن يقيم الحد على عائشة أو على الذين جاءوا بالإفك سواء ثبتت التهمة على المرأة أو ثبتت البراءة لها منها؟ فلِم لم يفعل؟ هل في روايات أهل العلم ما يثبت ذلك؟

جواب مفترى: لعل التضارب في نقل الرواية هو السمة الغالبة على ما سطرته مؤلفات أهل العلم. فالبعض ينفي أن يكون الرسول الكريم قد أقام حدا على أحد في حديث الإفك، والبعض الآخر يؤكد بأن النبي قد أقام الحد على بعضهم، لكن المؤكد عند الجميع أن النبي لم يقم الحد على كل من جاءوا بالإفك، أليس كذلك؟

رأينا: من أراد أن يجادل في ذلك، فليرجع وينبش في بطون أمهات كتب الأحكام والتفسير، وإن هو وجد ما يناقض ما نقول فله منا الشكر، ونحن ملتزمون أن نأخذ بقوله، ونلقي برأينا في سلة المهملات. وحتى يأتينا الدليل ممن أراد المجادلة، فإن موقفنا المبدئي هو التالي: أن النبي الكريم لم يقم الحد بحق من جاءوا بالإفك إطلاقا بالرغم أن البراءة للمرأة قد أثبتت بوحي السماء.

الدليل

نحن نفتري الظن بأنه لو كان الرسول الكريم قد عمد إلى إقامة الحد على من جاءوا بالإفك، لما كان سيقيم الحد على بعضهم دون البعض الآخر، لأن ذلك يصبح من باب التحيز الواضح، وهو ما لا يمكن للرسول الكريم أن يتهاون فيه.

السؤال: لماذا إذن لم يعمد النبي إلى إقامة الحد على من جاءوا بالإفك كما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.
رأينا: لأن الذين جاءوا بالإفك كانوا عصبة
السؤال: وما معنى ذلك؟
رأينا لمفترى: نحن نفتري الظن بأنه مادام أن الذين شاركوا في المؤامرة كانوا عصبة، أي مجموعة من الرجال (وعددهم عشرة كإخوة يوسف مثلا)، فهم إذن قد خططوا وتآمروا سرا على تنفيذ مخططهم من أجل تحقيق مصالح غير معلنة على الملأ. لذا، بقيت شخصياتهم غير معلنة. فهم الذين خططوا الإفك

سرا، فحاولوا جهدهم أن يتكتموا على شخصيات جميع المشاركين في المخطط المزمع تنفيذه. فكانوا بالمفردات الدارجة كالعصابة.

السؤال: لماذا إذن لم يعمد الرسول الكريم على إقامة الحد عليهم؟
رأينا: لأن أحدا منهم لم يكن يتجرأ أن يعلن عن شخصيته. فالذين جاءوا بالإفك لم يكونوا ليتجرؤوا على تقديم أنفسهم، وهم الذين لم يتجرؤوا على تقديم الشهادة العلنية ضد السيدة عائشة.
السؤال: ألم يكن النبي الكريم يعلمهم؟
رأينا، بلى، لقد كان يعلمهم جميعا. وكذلك كان أبو بكر الصديق.
السؤال: لماذا لم يفضحهم النبي إذن؟
جواب: لقد كان هذا جانبا من المخطط الذي كان يدبّره النبي الكريم مع صاحبه أبي بكر لإضعافهم وإبقائهم في دائرة الاتهام غير المفتضح، للاستفادة من ذلك عندما يلزم الأمر، وهو ما حصل فعلا في سقيفة بني ساعده.
السؤال: كيف ذلك؟
رأينا: عندما حصلت المواجهة بين أبي بكر وسعد بن عبادة في سقيفة بني ساعده كان الصمت يعلو المكان، وكان سعدا يحاول الترويج لحقه في الخلافة بداعي نصرته للنبي في المدينة، فهو من الأنصار الذين قدّموا للإسلام ما قدموا في وقت الضيق، وهم ...، وهم...، الخ. وقد حاول سعد بهذه الذريعة أن يكسب تأييد فريق من قومه، وهم الذين تواجدوا معه في سقيفة بني ساعده، فحاول جر النقاش إلى هذا المنزلق وهو أحقية الأنصار مقابل أحقية المهاجرين. ولو نجح سعد في ذلك لشق صف المسلمين منذ اليوم الأول بعد وفاة النبي بالموت، ولربما وصل الخلاف بين الطرفين إلى حد الاقتتال بالسيف. لكن كيف نجح أبو بكر في الخروج من هذا المنزلق الخطير؟

رأينا: لو تتبعنا تاريخ الخلافة الإسلامية بعد هذه الحادثة لما وجدنا أثرا لخلاف بين مهاجر وأنصاري في ذلك، ليكون السؤال الحتمي هو: لماذا لم يحاول أحد من الأنصار أن يدّعي حقا في الخلافة؟

رأينا: على الرغم من تكرار حادثة انتقال السلطة أكثر من مرة، إلا أن أحدا من الأنصار لم يدّعي حقه فيه، بل لم ينافس عليها إطلاقا. فلا نجد في بطون كتب التاريخ أو حتى كتب السيرة والأحكام خلافا بين المهاجرين والأنصار بعد حادثة سقيفة بني ساعده، فلم - يا ترى- سكت صوت الأنصار تماما؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى: نحن نظن أن أبا بكر هو من أخرج الأمة بأكملها من هذا المنزلق الخطير الذي كاد يطيح بالدولة الإسلامية الناشئة حتى قبل تأسيسها. فكيف فعل ذلك؟
رأينا المفترى: ما أن حصلت المواجهة بين أبي بكر من جهة وسعد بن عبادة من جهة أخرى حتى استطاع الصديق بإيمانه ورباطة جأشه وقوته الحقيقية أن يوقف دعوى سعد عن حدها، فأثبت له وللحاضرين جميعا بأن هدف سعد بن عبادة ليس إثبات حق للأنصار أو نفي حق للمهاجرين في الخلافة لأن تلك من دعوى الجاهلية. فلقد حصلت مثل هذه الفرقة بعد غزوة حنين عندما وزّع النبي الغنائم على الناس واستثنى الأنصار من جلها، ولما وجد بعض الأنصار في أنفسهم حرجا من ذلك، ارتفعت حناجر

بعضهم بالتذمر حتى وصلت النبي الكريم الذي لم يتردد حينها في جمع الأنصار والوقوف بهم خطيبا ليذكرهم جميعا بموقف المهاجرين والأنصار من الدعوة، فالجميع شارك فيها، والجميع صاحب حق فيها، وليس لأحد فضل على أحد آخر إلا بمقدار فضل الأخير على الأول. ففضل المهاجر على الأنصاري كفضل الأنصاري على المهاجر. فاستطاع النبي منذ تلك الحادثة أن يسكت الصوت الذي ينادي للتفريق بين الطرفين، وليس يفعل مثل هذا إلا من لم يكن الإيمان قد دخل قلبه بعد، أو أن يكون أقرب إلى النفاق منه إلى الإيمان.

ولعلي أجزم الظن أن أبا بكر لم يجد كثير عناء في أن يوصل الرسالة إلى كل الحاضرين في سقيفة بني ساعده حينئذ، لأنه لا شك ردد ما قاله النبي بعد حادثة توزيع غنائم حنين، ولا أشك أن أعين المؤمنين الصادقين قد ذرفت دمعا كما فعلت عندما وقف فيهم النبي خطيبا بعد حنين. فهم الآن لا يستمعون إلى مفردات تخرج من حنجرة أبي بكر ولكنهم يسمعون صوت النبي فيهم وإن كان الآن ممدا بين ظهرانيهم بعد أن توفاه الله بالموت.

لكن، كان تساؤل أبي بكر الذي دوى صداه عاليا في المكان حينها هو: إذا كنت لا تفعل ذلك – يا ابن عباده- من أجل إثبات حق للأنصار، فما الذي يدفعك إلى فعل ذلك الآن؟

تخيلات مفتراة: أنا استطيع أن أتخيل أن الرسالة التي كان أبو بكر يريد إيصالها إلى سعد حينها هي: هل - تراك يا سعد- ستكرر الموقف الذي فعلته في حديث الإفك؟ هل تراك – يا سعد- تضع يدك هذه المرة (كما فعلت سابقا) في يد من تولى كبره فدبر حديث الإفك كما فعلت سابقا؟ إذا كان هذا هو ما تريده، فلن أتردد أن أفصح الآن وعلى مسمع الجميع ما فعلت حينها. ولعلي لا أتردد أن أذكر أسماء جميع الذين تورطوا معك حينها في حديث الإفك، لا بل وأشير إليهم الآن بالبنان لأنهم يقفون معك في هذه السقيفة، ولن أتردد أن أخبرك بالدافع الذي جعلك تضع يدك بيد ذاك المنافق معلوم النفاق الذي لم ولن يأل جهدا للإيقاع بين المسلمين، لأن هدفه هو العداء لهذا الدين. فما الذي حصل بعد هذه الرسالة الموجهة إلى سعد مباشرة.

رأينا: لا أظن أن سعدا أو أحدا من الذين تواجدوا معه (وكان من بينهم من شارك في حديث الإفك) كان يستطيع أن يقف في وجه قوة الصديق هذه. فما كان منه وممن شارك معه في حديث الإفك (نحن نتخيل) إلا أن آثروا السكوت وللأبد في نبش موضوع الخلافة، فانتقلت بكل يسر وسلاسة للصديق الذي كان الأحق والأجدر فيها، ليس طمعا في مغنم دنيوي، وإنما لأن المواقف القادمة قريبا ستكشف بأنه هو الرجل الوحيد الذي سيستطيع النجاة بقارب المؤمنين في هذا البحر المتلاطم من المسلمين الذين لم يدخل الإيمان بعد في قلوبهم ومن المنافقين الذين يتربصون بهذا الدين وأهله.

السؤال: من هو الشخص الذي تولى كبره في حديث الإفك؟

رأينا المفترى: إنه الذي دبر حديث الإفك برمته. إنه الذي كان يتربص بشخص محمد نفسه وبدين محمد. إنه زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي بن سلول.

الدليل

لا شك عندنا أن جميع الروايات التاريخية لحديث الإفك تجمع على أن خيوط حديث الإفك بدأت تحاك والجيش لازال خارج المدينة، أليس كذلك؟ لذا لابد أن يكون من بدأ حياكة خيوط حديث الإفك (نحن نفتري الظن) متواجدا بين صفوف الجيش. ولابد أنه كان عارفا بما حصل من أمر السيدة عائشة عندما تأخرت عن الركب، ولابد أنه كان عارفا بمن لحقت الجيش بصحبته، وهكذا.

ثانيا، لا شك أن من بدأ حياكة خيوط ذلك الحديث لم يكن من المؤمنين حقا لأنه لو كان كذلك، لما جاءت ردة فعله تزيد على ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: 12]
- ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]

نتيجة مفتراة: نحن نكاد نجزم أن من بدأ حياكة خيوط حديث الإفك كان من المنافقين

ثالثا، لو تتبعنا سيرة المنافقين في الغزوات لوجدنا أن المغانم هي التي كانت تخرجهم مع النبي، فسيرتهم في القتال معروفه وهي ما تصوره الآيات الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران:167]
- ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: 72-73]

رابعا، حاولنا أن نبين في الأجزاء السابقة أن غزوة بني المصطلق لم تكن من الغزوات الكبيرة التي كان متوقعا أن يقع فيها قتالا كبيرا بين المسلمين والكفار

خامسا، افترينا الظن بأن غزوة بني المصطلق قد جاءت بغنائم كبيرة على المسلمين

سادسا، لما كان بعض المنافقين لن يفوتوا على أنفسهم فرصة الظفر بالغنائم، كان خروجهم مع النبي متوقعا.

سابعا، لم يكن خروج المنافقين مع الرسول حصرا بهذه الغزوة، بل لابد أنهم قد خرجوا معه في بعض غزواته الأخرى خاصة التي لم تكن حاسمة والتي كان من المتوقع أن تجر عليهم الفوز العظيم بالغنائم المتوقع الحصول عليها.

وهنا ننتقل إلى النقطة التي نظن أنها ملفتة للانتباه وهي: في حين أن خروج المنافقين مع النبي في بعض غزواته قد كان متكررا، إلا أنه حصل أن تجرأ بعض منهم على النبي في واحدة من غزواته، وتوعد النبي بإخراجه من المدينة بعد العودة منها كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: 8]

السؤال: لماذا؟ أي لماذا تجرأ بعض المنافقين على تهديد النبي بعد العودة للمدينة؟ ومتى حصل ذلك؟

رأينا: دعنا ننبش بداية فيما جاء عن هذه الآية الكريمة في بطون أمهات كتب التفسير كالطبري مثلا:

- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: 8]

القول في تأويل قوله تعالى : { يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون } يقول تعالى ذكره : يقول هؤلاء المنافقون الذين وصف صفتهم قبل { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } فيها , ويعني بالأعز : الأشد والأقوى , قال الله جل ثناؤه : { ولله العزة } يعني : الشدة والقوة { ولرسوله وللمؤمنين } بالله { ولكن المنافقين لا يعلمون } ذلك . وذكر أن سبب قيل ذلك عبد الله بن أبي كان من أجل أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار. ذكر من قال ذلك : 26474 - حدثني محمد بن معمر , قال : ثنا أبو عامر , قال : ثنا زمعة , عن عمرو , قال : سمعت جابر بن عبد الله , قال : إن الأنصار كانوا أكثر من المهاجرين , ثم إن المهاجرين كثروا فخرجوا في غزوة لهم , فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار , قال : فكان بينهما قتال إلى أن صرخ : يا معشر الأنصار , وصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين ; قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم , فقال : " ما لكم ولدعوة الجاهلية " ؟ فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار , قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوها فإنها منتنة " , قال : فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل , فقال عمر : يا رسول الله دعني فأقتله , قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتحدث الناس أن رسول الله يقتل أصحابه " . 26475 - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس , قوله : { يقولون لئن رجعنا إلى المدينة } إلى { ولله العزة ولرسوله } قال : قال ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول الأنصاري رأس المنافقين , وناس معه من المنافقين . 26476 - حدثني أحمد بن منصور الرمادي قال : ثنا إبراهيم بن الحكم قال : ثني أبي عن عكرمة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول كان يقال له حباب , فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله , فقال : يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله , فذرني حتى أقتله , فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقتل أباك عبد الله " , ثم جاء أيضا فقال : يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله , فذرني حتى أقتله , فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل أباك " , فقال : يا رسول الله فتوضأ حتى أسقيه من وضوئك لعل قلبه أن يلين , فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه , فذهب به إلى أبيه فسقاه , ثم قال له : هل تدري ما سقيتك ؟ فقال له والده نعم , سقيتني بول أمك , فقال له ابنه : لا والله

, ولكن سقيتك وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ; قال عكرمة : وكان عبد الله بن أبي عظيم الشأن فيهم. وفيهم أنزلت هذه الآية في المنافقين : { هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا } وهو الذي قال : { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } قال : فلما بلغوا المدينة , مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه , أخذ ابنه السيف , ثم قال لوالده : أنت تزعم " لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " , فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم. - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا يحيى بن واضح , قال : ثنا الحسين , عن عمرو بن دينار , عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار برجله وذلك في أهل اليمن شديد فنادى المهاجرين يا للمهاجرين , ونادى الأنصار يا للأنصار قال : والمهاجرون يومئذ أكثر من الأنصار , فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " دعوها فإنها منتنة " , فقال عبد الله بن أبي ابن سلول . { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } " . 26477 - حدثني عمران بن بكار الكلاعي , قال : ثنا يحيى بن واضح , قال : ثنا علي بن سليمان , قال : ثنا أبو إسحاق , أن زيد بن أرقم , أخبره أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال { لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا } وقال { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } قال : فحدثني زيد أنه أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عبد الله بن أبي , قال : فجاء فحلف عبد الله بن أبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ذلك ; قال أبو إسحاق : فقال لي زيد , فجلست في بيتي , حتى أنزل الله تصديق زيد , وتكذيب عبد الله في { إذا جاءك المنافقون } 26478 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } قرأ الآية كلها إلى { لا يعلمون } قال : قد قالها منافق عظيم النفاق في رجلين اقتتلا , أحدهما غفاري , والآخر جهني , فظهر الغفاري على الجهني , وكان بين جهينة والأنصار حلف , فقال رجل من المنافقين وهو ابن أبي : يا بني الأوس , يا بني الخزرج , عليكم صاحبكم وحليفكم , ثم قال : والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك " , والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل , فسعى بها بعضهم إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم , فقال عمر : يا نبي الله مر معاذ بن جبل أن يضرب عنق هذا المنافق , فقال : " لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه " . ذكر لنا أنه كان أكثر على رجل من المنافقين عنده , فقال : هل يصلي ؟ فقال : نعم ولا خير في صلاته , فقال : نهيت عن المصلين , نهيت عن المصلين. - حدثنا ابن عبد الأعلى , قال : ثنا ابن ثور , عن معمر , عن قتادة , قال : اقتتل رجلان , أحدهما من جهينة , والآخر من غفار , وكانت جهينة حليف الأنصار , فظهر عليه الغفاري , فقال رجل منهم عظيم النفاق : عليكم صاحبكم , عليكم صاحبكم , فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك " , أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وهم في سفر , فجاء رجل ممن سمعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم , فأخبره ذلك , فقال عمر : مر معاذا يضرب عنقه , فقال : " والله لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه " , فنزلت فيهم : { هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله } وقوله : { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } : 26479 -حدثنا ابن عبد الأعلى , قال : ثنا ابن ثور , عن معمر , عن الحسن أن غلاما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم , فقال : يا رسول الله إني سمعت عبد الله بن أبي يقول كذا وكذا ; قال : " فلعلك غضبت عليه ؟ " قال : لا والله لقد سمعته يقوله ; قال : " فلعلك أخطأ سمعك ؟ " قال : لا والله يا نبي الله لقد سمعته يقوله قال : فلعله شبه عليك " , قال : لا والله , قال : فأنزل الله تصديقا للغلام : { لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } , فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن

الغلام , فقال : " وفت أذنك , وفت أذنك يا غلام " . 26480 - حدثنا يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قول الله { ليخرجن الأعز منها الأذل } قال : كان المنافقون يسمون المهاجرين : الجلابيب ; وقال : قال ابن أبي : قد أمرتكم في هؤلاء الجلابيب أمري , قال : هذا بين أمج وعسفان على الكديد تنازعوا على الماء , وكان المهاجرون قد غلبوا على الماء ; قال : وقال ابن أبي أيضا : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل لقد قلت لكم : لا تنفقوا عليهم , لو تركتموهم ما وجدوا ما يأكلون , ويخرجوا ويهربوا . فأتى عمر بن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي ؟ قال : " وما ذاك ؟ " فأخبره وقال : دعني أضرب عنقه يا رسول الله , قال : " إذا ترعد له أنف كثيرة بيثرب " قال عمر : فإن كرهت يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين , فمر به سعد بن معاذ , ومحمد بن مسلمة فيقتلانه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه , ادعوا لي عبد الله بن عبد الله بن أبي " , فدعاه , فقال : " ألا ترى ما يقول أبوك ؟ " قال : وما يقول بأبي أنت وأمي ؟ قال : " يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " ; فقال : فقد صدق والله يا رسول الله , أنت والله الأعز وهو الأذل , أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله , وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني , ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتينهما به , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا " ; فلما قدموا المدينة , قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه , ثم قال : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل , أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله , والله لا يأويك ظله , ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله , فقال : يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ! يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ! فقال : والله لا تأويه أبدا إلا بإذن منه ; فاجتمع إليه رجال فكلموه , فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله , فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه , فقال : " اذهبوا إليه , فقولوا له خله ومسكنه " ; فأتوه , فقال : أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم . 26481 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة وعلي بن مجاهد , عن محمد بن إسحاق , عن عاصم بن عمر بن قتادة , عن عبد الله بن أبي بكر , وعن محمد بن يحيى بن حبان , قال : كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق , قالوا : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له , وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ; فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم , خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل , فتزاحف الناس فاقتتلوا , فهزم الله بني المصطلق , وقتل من قتل منهم , ونفل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم , فأفاءهم الله عليه , وقد أصيب رجل من بني كلب بن عوف بن عامر بن ليث بن بكر , يقال له هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت , وهو يرى أنه من العدو , فقتله خطأ , فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد , يقود له فرسه , فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا , فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين , فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول , وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم , غلام حديث السن , فقال : قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك " , أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ; ثم أقبل على من حضر من قومه , فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم , وقاسمتموهم أموالكم , أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا

إلى غير بلادكم ; فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم , وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه , فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه , لا , ولكن أذن بالرحيل " , وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها , فارتحل الناس , وقد مشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه , فحلف بالله ما قلت ما قال , ولا تكلمت به ; وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفا عظيما , فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه , ولم يحفظ ما قال الرجل , حدبا على عبد الله بن أبي , ودفعا عنه ; فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار , لقيه أسيد بن حضير , فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ; ثم قال : يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها , فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ " قال : فأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : " عبد الله بن أبي " , قال : وما قال ؟ قال : " زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل " ; قال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت , هو والله الذليل وأنت العزيز ; ثم قال : يا رسول الله ارفق به , فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه , فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا . ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى , وليلتهم حتى أصبح , وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس , ثم نزل بالناس , فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما , وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي. ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع , يقال له نقعاء ; فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار " ; فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء يهود , وكهفا للمنافقين قد مات ذلك اليوم , فنزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبد الله بن أبي ابن سلول , ومن كان معه على مثل أمره , فقال : { إذا جاءك المنافقون } فلما نزلت هذه السورة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد فقال : " هذا الذي أوفى الله بأذنه " , وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أبيه . 26482 -حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , قال : ثني محمد بن إسحاق , عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه , فإن كنت فاعلا , فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه , فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده مني , وإني أخشى أن تأمر به غيره فيقتله , فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله , فأقتل مؤمنا بكافر , فأدخل النار ; فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " , وجعل بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه , ويأخذونه ويعنفونه ويتوعدونه , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم " كيف ترى يا عمر ; أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له أنف , لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته " ; قال : فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

لو تدبرنا هذا "التفسير العظيم" لوجدنا بعض الأمور التي تستوجب التوقف عندها:

1. أجمع أهل العلم أن الذي تجرأ على النبي في ذلك هو عبدالله بن سلول
2. أجمع أهل العلم أن تلك الحادثة قد افتعلت لشق الصف بين الأنصار والمهاجرين، فالخلاف حصل بعد أن حصلت مناوشة بين رجل من الأنصار مع رجل من المهاجرين (أو من يوالوهم)
3. نحن نصدق الرواية التي جاءت بالخبر أن هذه الحادثة قد حصلت بُعيد غزوة بني المصطلق وهي الغزوة التي حصل فيها حديث الإفك.
4. الخ

السؤال: كيف يمكن ربط الأحداث مع بعضها البعض؟

رأينا المفترى: عندما تأخرت السيدة عائشة عن الركب، وباتت ليلتها بعيدا عنهم ثم جاء بها رجل غريب في اليوم التالي على بعيره، لم يكن من كان من المنافقين ليظن خيرا، فبدأ بنسج خيوط حديث الإفك، وأخذت الشائعة تدور في الجيش على لسان أهل النفاق، وأخذ بعض المسلمين الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد الخوض في هذا الحديث، وعندها بدأ بعضهم يتدارس الأمر مع من جاء بالإفك نفسه وهو عبدالله بن سلول، فكان (نحن نتخيل) من بينهم سعد بن عباده الذي لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبته بالسيادة. فوجد في إلصاق التهمة بالسيدة عائشة طريقا سهلا لإزاحة أبي بكر عن الساحة، فتلاقت المصالح مع بعضها البعض، وهنا لم يكن من ابن سلول إلا أن يعمل كل ما يستطيع ليغذي شق الصف بين الأنصار والمهاجرين، فافتعل حادثة الاقتتال بين نفر من المهاجرين والأنصار.

تخيلات: عندما وجد عبدالله ابن أبي ابن سلول أنه فعلا قد استطاع أن يحدث شقا بين الطرفين، ظن بنفسه أنه قد تمكّن من محمد ودينه، فما كان منه إلا أن نطق بكلمة الكفر "لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ"، وبالرغم من محاولته الاعتذار لاحقا عندما وجد أن غالبية المسلمين في صف محمد بمن فيهم ابنه نفسه، إلا أن ذلك لم يكن لينفعه:

- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة: 74]

والسبب في اعتذاره كان أنه من الذين (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا)، فكان من الناقمين على هذا الدين وأهله.

الدليل

لو رجعنا إلى حديث الإفك كما بينته الآية الكريمة التي جاءت لتكشف مخطط من جاء به لوجدنا أنها تبرز شخصا واحد من بين العصبة على أنه هو من تولى كبره منهم، وهو من توعده الله بالعذاب العظيم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

السؤال: من الذي تولى كبره منهم؟ وما معنى أن يكون هذا الشخص على وجه التحديد قد تولى كبره؟
رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن مفردة كِبْرَهُ في هذه الآية الكريمة مشتقة من مفردة "أكبر"
السؤال: وما علاقة ذلك بحديث الإفك؟
رأينا: نحن نظن أن الذي تولى كبره في حديث الإفك كان هدفه "أكبر".
سؤال: وما معنى ذلك؟ لم أفهم شيئا يقول صاحبنا.
جواب: ربما نستطيع أن نتبيّن معنى مفردة "كِبْرَهُ" من مكان آخر في كتاب الله، وهو ما جاء في الآية الكريمة التالية التي تصور ما فعلت النسوة بيوسف عندما "أَكْبَرْنَهُ" قبل أن يقطعن أيديهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

فقد زعمنا الظن أن النسوة عندما رأين يوسف أكبرنه لأنهن ببساطة اخترن إيقاعه في الفتنة مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217]

فظننا مفترين القول من عند أنفسنا أنه لما كانت الفتنة أكبر من القتل (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ)، جاء قرار النسوة من باب الإكبار على صيغة أنهن قد "أَكْبَرْنَهُ".

وبهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا نعود إلى قصة الذي تولى كبره في حديث الإفك ليكون منطقنا المفترى على النحو التالي: كان هدف الذي تولى كبره هو إحداث الفتنة في صفوف المسلمين عن طريق القتل، فحاول إشعال الفتنة بالاقتتال بين نفر من المهاجرين والأنصار، وكان هدفه أكبر من أن يقتل رجل من الأنصار رجلا من المهاجرين أو العكس، لأن هدفه الإكبار، أي الفتنة، لأن الفتنة لا شك هي أكبر من القتل بحد ذاته (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ).

والله أعلم

تساؤلات

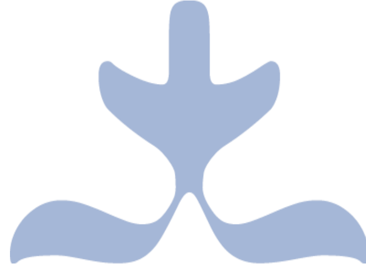
⇐ كيف حاك عبد الله أبن سلول حديث الإفك؟
⇐ كيف روجه بين صفوف المسلمين؟
⇐ من الذي شاركه في ذلك؟
⇐ كيف أوقفه النبي عند حده؟
⇐ لماذا سكت النبي عليه؟

⇐ ما علاقة هذا كله بحديث الإفك نفسه؟
⇐ كيف كان في ذلك خير للمؤمنين حينئذ؟
⇐ كيف أصبح في ذلك خير للمؤمنين في كل حين؟
⇐ الخ

هذه جملة من التساؤلات التي سنتناولها (بحول الله وتوفيقه) في الجزء القادم من هذه المقالة. سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما إنه هو الواسع العليم.

وأعوذ بالله أن أكون قد افتريت عليه الكذب أو أن أكون قد قلت عليه ما ليس لي بحق، وأسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما.

والله أعلم



حديث الإفك

الجزء السادس

كيف كان حديث الإفك خيرا للمؤمنين في كل وقت وحين؟



الجزء السادس: كيف كان حديث الإفك خيرا للمؤمنين في كل وقت وحين؟

كانت بعض التساؤلات التي أنهينا بها الجزء السابق ووعدنا القارئ الكريم متابعة النقاش فيها من وجهة نظرنا المفتراة من عند أنفسنا في هذا الجزء هي:

- ⇐ كيف حاك عبد الله ابن سلول حديث الإفك؟
- ⇐ كيف روّج له بين صفوف المسلمين؟
- ⇐ من الذي شاركه في ذلك؟
- ⇐ كيف أوقفه النبي عند حده؟
- ⇐ لماذا سكت النبي عليه؟
- ⇐ ما علاقة هذا كله بحديث الإفك نفسه؟
- ⇐ كيف كان في ذلك خير للمؤمنين حينئذ؟
- ⇐ كيف أصبح في ذلك خير للمؤمنين في كل وقت وحين؟
- ⇐ الخ.

وكان الهدف الرئيس في الجزء السابق منصبا على تبيان وجهة نظرنا في كيفية وصول أبي بكر إلى الخلافة بعد وفاة النبي الكريم بالموت، وأن وصوله للخلافة كان خيرا للمؤمنين لأنه كان (نحن نظن) الشخص الأجدر بالمنصب لما يتمتع به من القوة اللازمة لإيقاف خطر فئتين من الناس من حوله، وهم:

1. المسلمون الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، وهم اللذين كانت تجرهم بعضُ الأطماع الدنيوية كعدم دفع الزكاة مثلا
2. المنافقون اللذين كان هدفهم الأول والأخير هو نسف هذا الدين من جذوره

وقد افترينا الظن أيضا بأن جدارة أبي بكر بالمنصب كانت من أجل تثبيت أركان هذا الدين بعد وفاة النبي الكريم بالموت، كما زعمنا الظن بأن النبي هو من كان يحضِّر الصديقَ لهذا المنصب، وقد بدأ تحضير الصديق للخلافة (حسب زعمنا) منذ تلك اللحظة التي قرر فيها النبي الكريم أن يصحبه معه في هجرته إلى المدينة، وذلك لأن السيناريوهات المحتملة والتي كانت متاحة أمام النبي في هجرته هي على النحو التالي:

1. أن لا يصحب النبي أحدا معه في هجرته، فيخرج سرا دون علم أحد من الناس مادام أن الله - لا شك- معه
2. أن يصحب أكثر من شخص معه، ليكونوا درعا له في مواجه أهل الكفر إن هم همّوا اللحاق به
3. أن يختار محمد شخصا واحدا فقط ليكون صاحبه في تلك الرحلة
4. الخ.

لمّا كان الذي اختاره محمد من جميع هذه السيناريوهات المحتملة هو السيناريو الثالث، وهو صحبة شخص واحد فقط في رحلته إلى المدينة، فسيكون السؤال التالي المطروح للنقاش هو: لماذا اختار النبي الكريم أبا بكر على وجه التحديد في تلك الصحبة؟

رأينا المفترى: لما كان إيماننا يقينيا بأن جميع أفعال النبي ليست عشوائية، ولكنها أفعال مقصودة بذاتها، مادام أن النبي هو وحي يوحى، لذا نحن نعتقد جازمين بأن هناك مبررا يمكن لنا أن نتوصل إليه مما فعل النبي الكريم. والحالة هذه، فإن منطقنا المفترى هو: لابد أن هناك حكمة محددة من قرار محمد أن يصحب أبا بكر على وجه التحديد في هجرته إلى المدينة؟ فما الذي دفع محمد لفعل ذلك؟

افتراءات ربما غير مسبوقة

⇐ أولا، نحن نؤمن يقينا بأن صحبة النبي لأبي بكر لا يمكن أن تقع في باب كف الأذى عن النبي، لأن الله هو من يكف عنه أذى المشركين، ولأن نصر النبي يأتيه من الله مباشرة بصريح اللفظ في الآية الكريمة التي تتحدث عن صحبة النبي لأبي بكر في الغار نفسها:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]

فمحمد لا يحتاج إذن لبشر أن ينصره مادام أن نصره يأتي مباشرة من الله، أليس كذلك؟

⇐ ثانيا، نحن نعلم عن طريق سادتنا أهل الدراية بما نقله لنا عنهم أهل الرواية أن أبا بكر لم يكن من المشهود لهم بفنون القتال الجسمي، فالجميع يشهد على نحالة جسم الصديق، ولو كان الأمر يحتاج إلى قوة جسمية قتالية، لوجد محمد في أصحابه الكثيرين ممن سيعجبه أجسامهم أكثر من الصديق نفسه. فنحن لا نكاد نجد في كتب السيرة أو حتى في كتب التاريخ مواقف قتالية ملفته للنظر لهذا الرجل.

⇐ ثالثا، نحن نؤمن يقينا بأن صحبة النبي للصديق لم تكن لتقع في باب التسلية، لأنه لو كان كذلك لربما اختار محمد أحد زوجاته لصحبته، أو لربما اختار شاعرا متمرسا بفنون الشعر يسامره في ليل الصيف طوال طريقه الطويلة إلى المدينة، ولا أظن أن الموقف يحتمل مثل هذا الظن.

⇐ رابعا، نحن نؤمن أيضا أن صحبة النبي للصديق في الهجرة لم تكن لتقع في باب صلة القرابة، وذلك لأنه لو أراد ذلك لكان علي – مثلا- هو الأولى بتلك الصحبة

⇐ الخ.

السؤال: لماذا إذن اتخذ النبي قراره بأن يصحب الصديق في تلك الرحلة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل ربما تتأتي لنا بعد طرح تساؤل آخر أكثر غرابة من سابقه، ألا وهو: لماذا قرر النبي أن يمكث مع صاحبه في الغار فترة من الزمن في رحلته تلك؟

جواب مفترى: لعل أكثر كتب السيرة تجمع على أن ذلك كان تكتيكا حربيا من النبي، لغرض التخفي عن الأنظار بعض الوقت، فيكف عنه أذى قريش اللذين خرجوا لمطاردته، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: أما نحن فإننا لا نجد ذلك صحيحا إلا عند مخرج فلم الرسالة الذي كان يبحث عن الإثارة كما في الأفلام الهندية، فهو يوصل الخطر إلى أقصى درجاته، ليحبس المشاهدُ أنفاسه خوفا على البطل، ثم ما يلبث أن ينجو البطل من الموقف بطريقة عجيبة، فيبقى المشاهد على أعصابه حتى اللحظة الأخيرة بالرغم أن النتيجة معلومة مسبقا وهي استحالة موت البطل لأنه إن مات البطل انتهى الفلم عند ذلك الحد، وهو ما لا يريده المخرج أو المشاهد.

السؤال: لماذا إذن قرر النبي أن يمكث في الغار مع صاحبه؟ يسأل صاحبنا مستعجلا الرد

رأينا: نحن لا نؤمن إذن بأن قرار النبي المكوث في الغار كان من أجل درء خطر من كان يطارده من قريش حينها، وذلك لأن النبي يعلم أن الله معهما سواء مكث هو وصاحبه في الغار فترة من الزمن أو تابعا سيرهما تجاه المدينة في الحال، فالرواية التاريخية تقول أن محمد بدأ هجرته عندما خرج من بيته بعد أن حنث التراب على رؤوس الفتية اللذين كانوا ينتظرونه عند الباب ليضربوه ضربة رجل واحد، ليكون التساؤل هو: إذا كان النبي قد خرج من بينهم وحنث التراب على رؤوسهم (كما تقول الرواية) فما استطاعوا رؤيته، فهل يحتاج بعد ذلك أن يواري نفسه عن الأنظار؟ من يدري؟!!

جواب مفترى: لا أظن أن محمدا يحتاج أن يواري نفسه عن أنظار أحد، وليس أدل على ذلك من رواية أهل العلم التاريخية مما حصل من أمر سراقة بن مالك عندما استطاع أن يقتفي أثرهما في الصحراء. ليكون منطقنا المفترى من عند أنفسنا هو: إذا كان رب محمد قد دفع عن النبي وصاحبه خطر سراقة بن مالك عندما غارت (كما تقول الرواية) قدما فرسه في التراب، ألم يكن يستطيع رب محمد أن يحميهما من كل اللذين طاردوهما بأن تغير أقدام خيولهم جميعا في التراب؟ وإذا كان سراقة بن مالك (طالب دم محمد) هو من توسل إلى محمد (كما تقول الرواية) أن ينجيه من الغرق في رمال الصحراء، فما الذي كان يمنع أن يحصل ذلك لكل من لحق بمحمد حتى لو كان جيشا من المقاتلين؟ ألم ينجِّ الله موسى ومعه بني إسرائيل من فرعون وجيشه؟ من يدري؟! لعلها ضرورة درامية للعقاد (مخرج فلم الرسالة).

السؤال مرة أخرى: ما الذي دفع بالنبي الكريم أن يمكث في الغار مع صاحبه في طريقه إلى المدينة؟ ما الذي تريد أن تقوله؟ كفاك لف ودوران، ربما يقول صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن مكوث محمد في الغار مع صاحبه كان مقصودا لذاته. فمحمد كان يريد أن يمكث فترة من الزمن في الغار مع صاحبه أبي بكر من أجل هدف محدد بعينه.

السؤال: ما هو ذلك الهدف؟

رأينا: نحن نظن أن الهدف ربما ندركه لو أننا طرحنا تساؤلا آخر نظن أن له علاقة بفحوى النقاش وهو: أين نزلت الرسالة الإلهية على محمد أساسا؟ ألا تقول روايات أهل العلم بأن الوحي بدأ يتنزل على محمد في الغار؟

جواب: نعم، لكن ذلك كان غار حراء، وهذا (كما تقول الرواية) هو غار ثور.

السؤال: وما الفرق بين غار حراء وغار ثور؟
جواب: لو تدبرنا ما حصل في هذا الغار الذي مكث فيه محمد وصاحبه، لوجدنا أن الاتصال مع السماء قد حصل هناك أيضا، ألا تصور الآية الكريمة قيد البحث ما حصل هناك في غار ثور فعلا؟

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن هناك في الغار، حيث كان الصديق بصحبة محمد حدث اتصال مباشر بين الأرض والسماء، وحصل تنزيل من السماء إلى الأرض. فهناك أنزل الله سكينته (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)، وهناك أيّد الله محمدا بجنود لا ترى (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا)، وهناك جاءت محمد البشرى بالنصر بأن الله جاعل كلمةَ اللذين كفروا السفلى لتبقى كلمتُه هو فقط هي العليا (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا). وانظر مرة أخرى– إن شئت- في الآية الكريمة السابقة نفسها من هذا الجانب.

السؤال: لماذا إذن اتخذ محمد أبا بكر صاحبا له في هجرته إلى المدينة؟
رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن أن النبي محمد قد كان يخطط لذلك، ولربما كان أحد الأسباب وراء ذلك هو ليرى الصديق (نحن نفتري القول) بأم عينه عملية الاتصال المباشر بين السماء والأرض (أي الوحي).

الدليل

تخيلات بعيدة جدا: خرج الفتية اللذين آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى من المدينة، فتوجهوا إلى الكهف من أجل أن ينشر لهم ربهم من رحمته وأن يهيئ لهم ربهم من أمرهم رشدا:

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 16]

فآووا إلى كهفهم فترة من الزمن، فكان من أمرهم ما كان. ليكون القول الذي ننوي افتراءه هو أن الدخول في الكهف (أو في الغار) كان من أجل الإيواء، أي المكوث فترة قصيرة محددة حتى يقضي الله أمرا. فالله هو من آوى مريم وابنها إلى ربوة ذات قرار ومعين، والفتية هم من آووا إلى كهفهم، وربما لمثل هذا السبب آوى محمد مع صاحبه إلى الغار في طريق هجرته إلى المدينة، ربما لكي يهيئ لهما ربهما من أمرهما رشدا، وللتفريق بين الغار والكهف انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟ الجزء السابع.

وهناك في هذا المكان حصل (نحن نظن) اتصال مباشر بين الأرض والسماء. وقد تحدثنا في الجزئين السابقين أن مجرد نزول السكينة كانت كافية أن تخرج أبا بكر من الغار شخصا مختلفا عن أبي بكر الذي دخل في الغار، فلقد دخل أبو بكر في الغار وما كان من أولياء الله لأنه ببساطة قد حزن (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ)، وأولياء الله لا يحزنون بصريح اللفظ القرآني (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، ولكنه خرج من الغار وقد أذهب الله عنه الحزن، فأصبح من أولياء الله اللذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

السؤال: هل كان هذا هو السبب الوحيد الذي من أجله اتخذ النبي أبا بكر صاحبا له في هجرته إلى المدينة؟

رأينا: نحن نظن أن هناك دوافع أخرى كانت محرك هذا القرار. فما الذي دفع محمد أيضا أن يصحب أبا بكر في الهجرة؟

رأينا: لعلي أجزم الظن أن النبي الكريم كان يريد أن يوصل رسالة محددة بعينها لأهل المدينة (الأنصار) كافة. فكيف ذلك؟

رأينا: لا أظن أن محمدا قد صحب أبا بكر من أجل أن يخرج أهل المدينة في استقبالهما مرددين أنشودة الأطفال طلع البدر علينا، لأن تلك "القصيدة المكذوبة" لم تكن أكثر من ضرورة درامية أخرى للعقاد في فلم الرسالة، لزيادة عامل الإثارة والتشويق عند المشاهد، فأهل العلم يعلمون متى تم تأليف هذه القصيدة، وهم يعلمون أيضا أن النبي لم يكن ليرضى أن يستقبله الناس بالغناء والرقص، ومن أراد المجادلة فليرجع فينبش في بطون الكتب عن تاريخ تأليف تلك القصيدة التي أشغلت العامة (وربما بعض أهل العلم) أكثر من البحث عن التفاصيل الحقيقة في قصة هجرة النبي الكريم وفي أسبابها ودوافعها ونتائجها. لكن ما يهمنا هنا هو السؤال التالي: ما الرسالة التي كان محمد يريد أن يوصلها لأهل المدينة عندما يرونه مع واحد من أصحابه وهو أبو بكر على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: لعل أهل مكة (المهاجرون) لا يحتاجون أن يتعرفوا على هذه الشخصية التاريخية لأن سيرة رسالة النبي في مكة على مدار الثلاثة عشر سنة الأولى من بعثته كانت معروفة لديهم تماما بجميع تفاصيلها، ولعل سيرة أبي بكر كانت من أبرز تفاصيلها التي لا تخفى على أحد من أهل مكة. لكن الرسالة الآن انتقلت إلى يثرب، وأهل هذه المدينة لم يكونوا يعلمون كل تفاصيل تلك السيرة، فما الذي سيفهمه أهل المدينة متى ما رأوا الرسول الكريم في صحبة شخص واحد من بين جميع أصحابه اللذين ساندوه في مكة؟

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن بأن صحبة النبي لواحد من أصحابه على وجه التحديد وهو أبو بكر ستترك الانطباع الأول والأخير في ذهن القوم جميعا، ألا وهو: أن هذا الرجال (أي أبا بكر) يقع من الرسالة الإسلامية ومن صاحب هذه الرسالة (وهو النبي الكريم) في مكانة لا يدانيها أحد غيره، لذا يجب على الجميع (مهاجرين وأنصار) أن يضعوا هذا الرجل في المكان الذي يلق به، سواء أثناء حياة النبي أو ربما بعد وفاته بالموت. فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المنطق الذي لم يكن ليخطئه أحد من أهل المدينة متى ما راءوا أبا بكر في صحبة النبي هو أنه لولا مكانة هذا الرجل في الرسالة لما اختاره صاحبها ليكون رفيقه على وجه التحديد من دون أصحابه جميعا.

لذا، عندما حدث بعض الخلاف على الخلافة في سقيفة بني ساعده، لم يكن من نقاط هذا الخلاف هو من يتولى الأمر من المسلمين، فما أن تم تسوية الخلاف مع سعد بن عبادة حتى كان القرار الجماعي الذي لم يعارضه أحد (سواء كان من المهاجرين أو الأنصار) هو أن الخليفة الأول بعد محمد هو أبو بكر الصديق.

السؤال: لماذا رضي الأنصار جميعا بأن يكون أبو بكر هو الخليفة؟ لِم لم تحصل مناقشات حول شخصية من يخلف محمد؟ نحن نسأل.

رأينا: لا أظن أن الصورة التي طبعت في ذهن أهل المدينة منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها محمد مع صاحبه عليهم قادما من مكة قد تلاشت أو اضمحلت في ذاكرتهم، بل على العكس فهي لازالت حاضرة قوية في أذهان الأنصار كما بقيت كذلك في أذهان المهاجرين، فصحبة النبي لأبي بكر في تلك الرحلة كانت (نحن نفتري الظن) تدبيرا حكيما من محمد نفسه لمثل هذا الموقف. فالنبي الكريم هو (نحن نفتري القول) من كان يحضّر الجميع (المهاجرين والأنصار) لخلافة هذا الرجل من بعده.

نتيجة خطيرة جدا جدا جدا لا أريد من أحد أن يتبناها لأنها لا تعبّر إلا عن وجهة نظر كاتب هذه السطور: نحن نظن أن الخلافة في التاريخ الإسلامي كله لم تكن إلا لأبي بكر فقط. فعمر وعثمان وعلي لم يكونوا خلفاء للنبي. انتهى.

الدليل

من هو الخليفة؟

نحن نظن أن قصة الخلافة قد بدأت منذ اللحظة الأولى للخلق. فالله خلق آدم ليكون خليفة في الأرض:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

وقد زعمنا الظن في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن هذا القرار الإلهي كان على نحو أن يحلّ آدم (وذريته) أي الإنس مكان إبليس (وذريته)، أي الجن. وقد سبب هذا القرار الإلهي بعض الخصام في الملأ الأعلى:

- ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [ص: 69]

وليس أدل على هذا الخصام من محاولة الملائكة إبداء قلقهم من خلافة آدم كما جاء في آية الخلافة نفسها. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة مرة أخرى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

لتكون النتائج الأولية التي نفتريها من عند أنفسنا والتي نظن بأنه لا يمكن المجادلة فيها هي:

1. أن الله هو من اتخذ القرار بالخلافة
2. أن آدم هو من كان صاحب هذه الخلافة

ويتكرر مثل هذا السيناريو في النص القرآني التالي:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

ليكون الله هو من اتخذ القرار بأن يكون داوود هو الخليفة، وليكون داوود هو الخليفة (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ). ولكن الملفت للانتباه هنا هو أن من مهام الخليفة هو الحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى (فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ).

نتيجة مهمة جدا: لكي يكون شخص ما خليفة يجب أن يكون اختياره لتلك المهمة مباشرا.

السؤال: إذا كان آدم أو داوود خليفة لأن الله هو من اتخذ القرار المباشر بخلافتهم في الأرض، فكيف نكون نحن (ذرية آدم) هل نحن أيضا خليفة؟

جواب: كلا، نحن لسنا خليفة ولكننا خلائف كما بصريح اللفظ في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165]
- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 14]
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 73]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: 39]

السؤال: ما الفرق بين أن نكون خليفة أو أن نكون خلائف؟

رأينا: نحن نظن أن اختيار الخليفة يجب أن يكون مباشرا من صاحب القرار، فهذا موسى يطلب من أخيه هارون أن يخلفه في قومه (أي في قوم موسى)، فكان هارون هو خليفة موسى في قوم موسى:

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: 142]

نتيجة مفتراة: لم يكن هارون خليفة موسى في قوم هارون وإنما كان خليفة موسى في قوم موسى بدليل أن موسى قد طلب من هارون أن يخلفه في قومه على وجه التحديد (وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)، كما أن موسى قد حدد لهارون ما يجب عليه أن يفعله في خلافته، ويتمثل ذلك في الإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين (وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ).

نتيجة مفتراة: عندما يكون شخص ما هو خليفة فيجب أن يأتي القرار بخلافته مباشرة من صاحب القرار، كما أن صاحب القرار يحدد لخليفته ما يعمل خلال مدة خلافته، وعادة ما تكون الإصلاح وعدم اتباع الهوى.

السؤال: هل حدد النبي الكريم من يخلفه في قومه؟

رأينا: إن كان فعل، فهو قد اختار شخصا واحدا فقط لهذه المهمة، ولا أخال أن هناك بين المسلمين كافة شخصا أحق أو أجدر بهذه الخلافة من أبي بكر، لذا كان أبو بكر هو خليفة رسول الله فقط، أي هو من اختاره محمد نفسه ليخلفه مباشرة في قومه، فكان من مهمته الإصلاح، بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى.

نتيجة مهمة جدا جدا: كانت فترة خلافة أبي بكر الصديق هي الفترة التي اتسمت بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى بامتياز.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن كل من جاء بعد أبي بكر ليكون خليفة المسلمين لم يكن بقرار محمد أو باختيار محمد، لأن ذلك لم يكن اختيارا مباشرا. لذا فهم وإن كانوا خلائف لكنهم ليسوا (نحن نفتري القول) خليفة لمحمد. انتهى

الدليل

الفرق بين الخلائف والخلفاء

ورد في كتاب الله أننا نحن البشر قد نكون خلفاء كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69]

وقد نكون خلائف كما في الآيات الكريمة التي أوردناها سابقا، ونعيد بعضها هنا لأغراض النقاش الحالي:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165]

ليكون السؤال الذي يجب إثارته على الفور هو: ما الفرق بين أن نكون خلفاء أو أن نكون خلائف؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن مفردة خلفاء تعني انتهاء الذرية السابقة واستبدالها بذرية (أو قوم آخرين). فنحن خلفاء من بعد قوم نوح:

- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69]

ونحن خلفاء من بعد عاد:

- ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: 74]

فاستبدال قوم حاليين بقوم السابقين، تجعل القوم الحاليين خلفاء الأرض:

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: 62]

وعملية ذهاب القوم السابقين وحلول القوم الحاليين مكانهم واضحة في السياقات التالية:

- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: 169]
- ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: 59]

فالذين أضاعوا الصلاة قد جاءوا من بعدهم (أي لم يعاصرونهم) وذلك لو أنهم عاصروهم لما أصبحوا قومان: قوم يقيم الصلاة وقوم أضاعوها واتبعوا الشهوات، ولظلوا قوما واحدا لأن القوم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات كانوا يفعلون ذلك بمجموعهم، وهم الذين سيلقون جميعا الغي الذي يتوعدهم ربهم به..

ولكن – بالمقابل- نصبح خلائف بعضنا البعض حتى في وجود القوم الحاليين معاصرين للقوم السابقين، فعميلة الاستبدال التام (نحن نفتري الظن) ليست ضرورية هنا. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت في السياقات القرآنية الخاصة بمفردة خلائف مرة أخرى من هذا المنظور:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165]
- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 14]
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 73]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: 39]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان أبو بكر خليفة من بعد محمد، وكان عمر خليفة من بعد أبي بكر، وهكذا. لذا يستحيل أن يكون عمر هو خليفة محمد، ولكنه خليفة أبي بكر، وهكذا.

الدليل

لو تتبعنا الروايات التاريخية جميعها لوجدنا فيها أن أبا بكر كان هو الوحيد الذي أطلق عليه مسمى خليفة رسول الله فقط، فلم يطلق عليه أي لفظ آخر كأمير المؤمنين مثلا حتى من قبل أعداء أبي بكر أنفسهم، فالجميع يقولون بملء أفواههم (عن قصد أو عن غير قصد) بأنه الخليفة الأول، أو خليفة المسلمين. ولكن الجدير بالملاحظة في هذا المقام أنه ما أن انتهت خلافة أبي بكر حتى تغيّر ذلك اللقب فورا من مسمى الخليفة إلى مسمى الإمارة. فعمر يسمى تارة بالخليفة وتارة أخر (وربما في أغلب الأوقات) بأمير المؤمنين. وكذلك كان عثمان وعلي.

نتيجة مفتراة: نحن نريد أن نسأل المجادل السؤال التالي: لِم لم يرد مسمى "أمير المؤمنين" بحق أبي بكر قط حتى على ألسنة أشد الناس عداوة له؟ لم ينعت الصديق بأنه خليفة رسول الله على الدوام؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: لماذا لم يطلق لفظ أمير المؤمنين على أبي بكر الصديق على وجه التحديد في حين أن جميع من جاءوا بعده (كعمر وعثمان وعلي) حملوا هذا اللقب؟

رأينا المفترى: لأن اختيار أبي بكر (فقط) هو من جاء مباشرا من صاحب القرار حينها (أي محمد). فالنبي محمد هو (نحن نفتري الظن) من هيأ الصديق ليخلفه في قومه، فكان الصديق خليفة رسول الله، وهو من حكم الناس بالحق وهو الذي لم يتبع الهوى وهو الذي لم يتبع سبيل المفسدين.

نتيجة خطيرة جدا: فإلى الباحثين عن عودة الخلافة الإسلامية نقول أنها لم ولن تكون خلافة حتى ولو زعمتموها كذلك، لأنها لا شك إمارة، فالذي يتولى أمر المسلمين هو أميرهم وليس خليفة فيهم إلا أن يكون قد جاء اختياره مباشرة من محمد. وهذا ما لا يمكن. فالخليفة هو (نحن نظن) خليفة لمن أخلفه في القوم. فأبو بكر هو خليفة محمد لأن محمدا هو من أخلفه في القوم. وإذا كان عمر خليفة فهو خليفة لأبي بكر ولكنه ليس خليفة لمحمد، وهكذا كان عثمان وهكذا كان علي.

السؤال: لماذا توقف لفظ الخلافة في زمن علي؟ لماذا أصبح علي معروف بأنه أمير المؤمنين أكثر من أنه خليفة المسلمين؟

جواب: إنه الانقسام الذي حصل في زمنه، ففي تلك الفترة من الزمن استطاع معاوية أن يدعي الخلافة، وجمع حوله من المؤيدين ما استطاع بهم أن يطيح بخلافة علي. فلم يحظ علي بإجماع الأمة طوال فترة حكمه، لذا أصبح أميرا لطائفة من المؤمنين وأصبح خصمه معاوية أميرا لطائفة أخرى، فأصبح لفظ الخلافة مستحيلا مادام أن اتفاق الأغلبية قد نزع عنه.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أن من حظي بخلافة من سبقه يجب أن يكون قد اكتسب الشرعية ممن سبقه كما يجب أن يكون قد حصل على تأييد الأغلبية الساحقة التي تحقق له الثبات في الحكم، فلا يتم منازعته على السلطة، ولو حصل ذلك لاستطاعت الأغلبية أن توقف الأقلية المنتفضة عند حدها.

السؤال: لماذا توقفت لفظة الخلافة تماما عند معاوية؟

رأينا: لأنه وصل إلى السلطة دون اكتساب شرعية ممن سبقه فيها. فكيف كان ذلك؟

رأينا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن محمدا لم يكن ليعترض على وصول أبي بكر إلى السلطة، فكان أبو بكر هو خليفة محمد، ولم يكن أميرا للمؤمنين. وبالمنطق المفترى نفسه نقول بأن أبا بكر لم ليعترض على وصول عمر إلى السلطة فكان عمر أمير المؤمنين وخليفة أبي بكر في الوقت نفسه، ولم يكن عمر ليعترض على وصول عثمان على السلطة، فكان عثمان أمير المؤمنين وخليفة عمر كذلك. وربما لم يكن عثمان ليعترض على وصول عليّ إلى السلطة، فظل علي أمير المؤمنين وخليفة عثمان حتى نازعه معاوية عليها. وهناك تزعزعت لفظة الخلافة حتى طغت عليها لفظة الإمارة (أي أمير المؤمنين). لأن معاوية استطاع (نحن نفتري القول) أن ينزع عن علي الشرعية التي أضفاها عليه عثمان عندما نازعه على مسألة الإسراع في الأخذ بثأر عثمان ممن قتله. ويكأن معاوية يقول للناس بأن علي لا يحمل الشرعية التي اكتسبها

من عثمان مادام أنه "يتلكأ" بالأخذ بالثار من قاتليه. ولكن لما كان علي سيعترض تماما على وصول معاوية إلى السلطة، ولما لم يضفي علي أي شرعية على معاوية، كان معاوية أميرا للمؤمنين ولم يكن خليفة لعلي. وهناك توقفت لفظة الخلافة تماما.

ولو تدبرنا التاريخ الإسلامي لوجدنا أن تولي أمر المسلمين قد ترك مفتوحا على مصراعيه لأن ذلك من شأن المسلمين أنفسهم. فالمسلمون هم من يتخذوا القرار بمن يتولى أمرهم، وهذا ليس قرارا يتخذه شخص محدد، لتتحمل تبعاته الأمة بأكملها، لأنه عندما أسند الأمر إلى شخص محدد بذاته انتقل الأمر من الإمارة (أي من يتولى أمر المسلمين) إلى الوراثة، فأصبح ملكا لا يفني في بني أمية وفي بني العباس، وهكذا. لذا فحتى يستمد لفظ الخلافة الشرعية على الحاكم، فلابد من توافر ثلاثة شروط على الأقل، وهم:

1. عدم اعتراض من سبقه حتى يكون خليفة له
2. أن لا يكون وريثا، أي أن لا يكون ملكا عاضا. فالوريث لا يكون خليفة إطلاقا.
3. الرضا من قبل الغالبية (أي الأكثرية) من أبناء الأمة حتى تستطيع تثبيت الحكم، وإيقاف الأقلية عند حدها إن هي خرجت على الحاكم الشرعي

وهذا في ظننا ما لم تفعله الأمة التي تدعي الإسلام دينا لها منذ صدر الدولة الإسلامية الأولى. فلقد أصبح الحكم فيهم وراثيا بدل أن يكون خليفيا، أميريا بقرار الأمة بأكملها.

السؤال: من الذي فعل هذا بالإسلام؟ من الذي نقل الأمر من خلافة الحكم ليكون من يتولي أمر المسلمين (الإمارة) أميرهم باختيار المسلمين ورضا من سبقه إلى الوصاية على المسلمين بالوراثة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن شخصين اثنين هما من أوقعا المسلمين جميعا في هذا المطب: إنهما أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب.

الدليل

نحن نظن أن هذا الكلام الذي نفتريه من عند أنفسنا ربما لن يرضي أحدا من أفراد قطبي الإسلام الرئيسيين (السنة والشيعة)، ولكننا كباحثين عن الحقيقة، نجد لزاما أن توضع الأمور كلها، جلّها ودقّها، على طاولة البحث للتدبر والتمحيص، ومن ثم الخروج بافتراءات قد تصيب وقد تخطئ. ومادام أن الهدف المنشود هو الوصول إلى الحقيقة، فإننا نستأذن الناس عامتهم وخاصتهم بأن يمنحونا فرصة المكان والزمان للخوض بهذه القضايا ربما من منظور جديد، ثم الحكم على نتائج البحث بعد ذلك بالطريقة التي يرونها مناسبة.

أما بعد،

لو تدبرنا تاريخ الرجلين (أبا سفيان والعباس) في الإسلام لربما وجدنا تطابقا عجيبا بينهما، فالرجلان لم يكونا من السبّاقين في الإسلام، والرجلان لم يكونا من أنصار محمد في مكة بالرغم أنهما من ساداتها، وفي الوقت ذاته نجد أن الرجلان لم يناصبا محمدا العداء الواضح كأبي جهل وأمية ابن خلف أو كأبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب (عمّ النبي). فلقد كان محمد متزوجا بابنة أبي سفيان، وقد كان العباس (حتى قبل

إسلامه) هو من مهر بعض نساء محمد. والأهم من هذا كله أنهما لحقا بركب المسلمين في يوم واحد: يوم أن عاد محمد فاتحا مكة، فلقد خرج الرجلان ليلا للقاء محمد في بطن مكة (كما تعلمنا من روايات أهل العلم).

السؤال: لماذا؟ لماذا جاءا مسلمين هناك؟ وهل كان قدومهما معا من باب المصادفة؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. نحن نظن أن الرجلين كانا يعيان تماما ما يفعلان. والأهم من هذا كله أنهما كانا صاحبي حنكة ودراية سياسية ربما لا يجاريهما في ذلك أحد من أهل مكة حينئذ. فهما لم يراهنا يوما على حصان خاسر. فالملفت لتاريخ الرجلين أنهما كانا (نحن نزعم الظن) يدوران حيث تدور كفة القوة، ليكونا على الدوام في طرف الصف الأقوى. فهما كانا في صف المشركين يوم أن كان المشركون هم الأقوى عسكريا، وها هما ينقلبان اليوم ليصبحا في صف محمد لأن الرحى قد دارت، وبان لهما أن الغلبة - لا محالة- لمحمد وأصحابه.

نتيجة مفتراة: لمّا وجد العباس وأبو سفيان أن الغلبة لا محالة لمحمد، وأنه لم يعد هناك قوة تستطيع أن تقف في وجه محمد وجيشه، اتخذا قرارهما البراغماتي (المنفعي) باللحاق بصف الغالب. لكن هذا لم يكن ليجعل منهما مؤمنين ممن دخل الإيمان في قلبيهما حقا. فحب السيادة والتملك (نحن نزعم الظن) لم تفارقهما يوما، لذا كان القرار الذي اتخذاه هو اللحاق بهذا الركب ومحاولة ركوب موجه وتسخيره لخدمة بعض أطماعهم الشخصية بالسيادة والملك بدلا من الوقوف في وجهه ومحاربته. ولو دققنا في أحد المشاهد التي جمعتهما معا في تلك الليلة التي التقيا فيها في بطن مكة (كما تنقله لنا روايات أهل العلم) لوجدنا أن أبا سفيان لم ينظر إلى ما أصبح عليه محمد بأكثر من أن يكون ملكا عظيما.

رأينا المفترى: منذ تلك اللحظة كان التنافس على الملك بين الرجلين واضحا. فكل منهما يظن أن ما جاء به محمد ليس أكثر من ملك عظيم يمكن استغلاله لتحقيق مآرب خاصة، فلا يجب أن يفوتا هذه الفرصة الذهبية لأن جزيرة العرب لم ولن تجتمع مرة أخرى كما هي مجتمعة الآن مع محمد. لذا، يمكن أن تتحقق السيادة بالملك من خلال هذه الرسالة، فلا ضير إذن من اللحاق بالركب مادام أن الهدف يمكن انجازه من خلال هذا الركب نفسه.

تخيلات مفتراة كاذبة من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على الظن بأن الرجلين حاولا إيصال الرسالة الواضحة لذريتهم بأن هذه فرصة تاريخية يستحيل أن تتكرر إن كانت دماء السادة لازالت تجري في عروقهم. ولما كان كل واحد منهم يعي مطامع الآخر، لم يكن ليتركها فريسة سهلة له، فلابد أن ينافس عليها بكل ما أوتي من قوة. ولعلي أتجرأ على الظن بأن رغبة أبي سفيان كانت أكثر جموحا من رغبة العباس، فالعباس (نحن نفتري الظن) كان يحاول أن يوقف أبا سفيان عند حده، لذا بدأت الفرقة من هناك. فكيف حصل ذلك؟

رأينا: رضي المسلمون جميعا بأبي بكر خليفة للمسلمين، وأجمعت الغالبية الساحقة على أن يكون عمر أميرا للمؤمنين ولم يكن أبو بكر ليعارض خلافة عمر له، ولكن ما أن اتخذ القرار بإمارة عثمان حتى بدأ

آل العباس (أحفاد العباس وتلاميذه) يبدون خشيتهم من سطوة بني أمية (أحفاد أبي سفيان وتلاميذه) على الإمارة خصوصا بعد أن عهد عثمان إلى معاوية ابن أبي سفيان نفسه إمارة الشام. ولما انتهت جهود آل العباس بانتقال الإمارة كلها إلى أحد أفرادهم وهو علي بن أبي طالب (وإن كان على حساب دم عثمان في بعض تفاصيلها)، هنا ثارة ثائرة بني أمية جميعا، فما هدأ لهم بال حتى استطاعوا الإطاحة بعلي وآله، لتنتقل الإمارة إلى بني أمية وللأبد في ملك عاض ينتقل بالوراثة بدل الإمارة، فأصبح أمر المسلمين ينتقل في كل مرة من الأب إلى الابن ومن الأخ إلى أخيه، فأصبح وراثيا مقيتا، لا يرضي المسلمين جميعا. وكان من أبرز المناهضين لهذا الحكم الأموي الوراثي هم بنو العباس، وما هدأ لهم بال حتى استطاعوا الإطاحة ببني أمية وإلى الأبد، وأعملوا فيهم الذبح والتقتيل في واحدة من أبشع صور إراقة الدماء في تاريخ البشرية.

متى اشتعلت جذوة الخلاف بين الطرفين؟ ومن الذي أشعلها؟ وكيف استطاع ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن معاوية ابن أبي سفيان هو من أشعل فتيل الخلاف. فكيف كان ذلك؟

رأينا المفترى: عندما أُسند أمر الشام إلى معاوية في زمن عثمان بن عفان، عمل الأول على تأسيس ملك له ولبني أمية هناك، وقد كان لدهاء الرجل وحكمته السياسية بالغ الأثر في تحقيق مآربه، فاستتب له الأمر في الشام كما خطط له، وما أن وصل علي إلى الخلافة حتى كان معاوية محكما قبضته على الشام كلها، ولما رأى علي ما كان من معاوية في الشام لم يكن ليسره بقاء بني أمية في السلطة هناك، فاتخذ قراره (أو كاد) بإعفاء معاوية من ولاية الشام.

تخيلات مفتراة: لمّا وجد معاوية أن أمر الملك الذي خطط له في الشام قد أصبح (أو كاد أن يصبح) في مهب الريح بوصول علي إلى الحكم عمد إلى التمرد على عليّ. ولكن كان لابد أن يفعل ذلك بكل ذكاء ودهاء سياسي ممكن، فكيف سيستطيع ذلك؟

رأينا المفترى: كان لابد لمعاوية أن يكتسب شرعية دينية تمكّنه من بسط نفوذه والتمرد على عليّ، فهذا (أي علي) شخص لا يستهان به بين المسلمين، والخروج عليه ليس بالأمر السهل، فكيف سيستطيع معاوية أن يقف ندا عنيدا وخصما شرسا في وجه عليّ؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأنه لابد له من استثارة واستمالة شخص آخر له من المكانة الدينية ما تستطيع أن تقاوم مكانة علي نفسه، وربما تستطيع استمالة قسط كبير من الصحابة إلى جانبها. فمن - يا ترى- سيكون ندا قويا وخصما ليس سهلا في هذه المواجهة المرتقبة مع عليّ؟ ربما خطر في بال معاوية.

جواب مفترى: لم يكن ليخطر ببال معاوية أن يستميل أحدا من كبار الصحابة ضد عليّ لأن الأمر يحتاج إلى المسوّغ الحقيقي الذي يجعله يتخذ قرارا صعبا كهذا، فلا يوجد من بين الصحابة من يمكن استثارته ضد علي دون سبب وجيه يتم من خلاله تسويق عداوة علي له. فما الذي سيفعله معاوية إذن؟

رأينا المفترى الخطير جدا: بعد أن حاول معاوية تدوير الأمر في ذاكرته التاريخية لم يجد (نحن نتخيل) في جمع المسلمين إلا شخصا واحدا يمكن أن يسوق عداوة علي له: إنها السيدة عائشة.

السؤال: لماذا؟ لماذا كانت عائشة هي الوحيدة من بين جميع المسلمين والمسلمات التي كان يمكن استثارة عداوة علي لها؟

رأينا: أنه حديث الإفك.

السؤال: كيف تم ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو رجعنا إلى حديث الإفك نفسه لنبحث فيه عن ما جاءنا عن العلاقة بين عليّ من جهة وعائشة من جهة أخرى، لوجدنا النص التالي:

> ... فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد , حين استلبث الوحي , يستشيرهما في فراق أهله ; قالت : فأما أسامة , فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود , فقال : يا رسول الله , هم أهلك , ولا نعلم إلا خيرا . وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك , والنساء سواها كثير , وإن تسأل الجارية تصدقك...

ولو دققنا في النص لوجدنا أن ذلك الكلام قد نُقل عن لسان عائشة نفسها، فهي من كانت تعلم موقف عليّ منها في حديث الإفك. فلقد كان عليّ (كما تقول رواية أهل العلم) يرى أن الرسول يستطيع أن يفارقها حتى بعد أن ثبتت براءتها. ليكون التساؤل الذي أشكل على عائشة حينها هو: لماذا اتخذ عليّ مثل هذا الموقف في حديث الإفك؟

رأينا: نحن نعلم جميعا أن عليّا كان صاحب علاقة الدم الأقوى مع النبي الكريم، فهو ابن عمه، كما أنه كان صاحب علاقة النسب الأقوى مع النبي، فهو زوج ابنته الكبرى فاطمة. ولو حاولنا أن نتخيل السيناريو لوجدنا أن فاطمة ربما كانت تكبر عائشة في العمر. ولما كانت فاطمة شديدة الحب لوالدها الذي تراه متزوجا من فتاة لازالت صغيرة السن، كانت المفارقة (التي نحاول تسويقها هنا) هي أن فاطمة قد أصبحت ترى المكانة المميزة لهذه السيدة الجديدة (أي عائشة) في بيت النبوة، ولعل فاطمة (بفطرتها الأنثوية) لم تكن تعي أن ذلك يقع في باب العدل من النبي مادام أن عائشة هي المرأة الوحيدة التي نكحها النبي وهي لازالت محصنة، أي لم تنكح من ذي قبل. ولعلي أجزم الظن أن حديث الإفك كان مناسبة مهمة لفاطمة لتبدي قلقها من المكانة التي أصبحت ترى عليها عائشة في بيت النبوة، فلربما أصبحت تظن أن مكانة عائشة في بيت النبوة أصبحت تشكل خطر على المكانة التي كانت عليها خديجة (والدة فاطمة) عندما كانت على قيد الحياة، فما الذي فعلته فاطمة حينها؟

تخيلات مفتراة: لما وجدت فاطمة أن الناس أخذوا يطعنون في والدها من خلال حديث الإفك الذي – في رأيها- قد تسببت به عائشة، كانت تميل إلى الدفاع عن والدها حتى وإن كان على حساب عائشة. وقد كان في سكوت والدها فترة من الزمن بالغ الأثر في إحداث القلق عندها. لذا ربما رأت فاطمة (نحن نتخيل) أن سد باب الفتنة هذه يكمن في فراق النبي لعائشة، وربما كان هذا هو رأي علي (زوج فاطمة)، وما أن طلب الرسول المشورة من علي وأسامة بن زيد في ذلك، حتى كان رأي عليّ واضحا لا لبس فيه: فراق عائشة – يرى علي- أنه الأمثل.

رأينا المفترى: نحن نجزم الظن بأن رأي علي هذا لم يكن مبنيا على اتهام لعائشة بالخيانة وإنما دفاعا عن النبي الذي أخذت ألسنة المتربصين به وبهذا الدين تطاله من كل حدب وصوب بسبب عائشة (كما يظن علي وزوجه فاطمة).

السؤال: ما علاقة هذا كله بمخططات معاوية للإطاحة بعلي؟

تخيلات مفتراة: لمّا كان معاوية رجل سياسة من الطراز الأول، ولمّا وجد أن عليّا لا محالة مقصيه عن ولاية الشام ربما عاجلا غير آجل، ولمّا كان يظن أن في ذلك نهاية لمطامع بني أمية بالإمارة وإلى الأبد، لم يكن ليدع الفرصة لتفوته، فأخذ يفعل كل ما يمكنه من أجل تقليب قلوب المسلمين على عليّ. وقد كان لذاكرته التاريخية كبير الأثر في إيقاظ جذوة فتيل الخلاف بين عائشة وعلي. فكيف فعل ذلك؟

رأينا: كانت حجة معاوية تتمثل في أن على عليّ (كخليفة لعثمان لم يصبح بعد أميرا للمؤمنين مادام أنه لم تتم له البيعة الجماعية بعد) أن يسرع في القصاص من قتلة عثمان قبل مبايعته، فيجب عليه – بمنطق معاوية- أن يقوم بواجباته كخليفة لعثمان قبل أن يرضى المسلمون به كأمير لهم جميعا. وقد استطاع بهذه الحجة أن يستميل كثير من كبار الصحابة كطلحة والزبير وعمار بن ياسر، فوقفوا في صف المطالبين بالقصاص لعثمان الذي خلفه علي، فما حصلت البيعة لعلي كأمير للمسلمين من كافة المسلمين.

السؤال: ما الذي كان معاوية يخطط له من خلال ذلك؟

رأينا: أن ينزع الخلافة عن علي مادام أن الإمارة (البيعة الجماعية) لم تتحصل له بعد. فكيف سيفعل ذلك؟

جواب مفترى:لما كان معاوية يهدف إلى ذلك، كان تفعيل القصاص العاجل في قتلة عثمان الوسيلة لتحقيق غايته الكبرى، وهي الإطاحة بعلي وبالتالي الإطاحة بحكم بني العباس وإلى الأبد. وليس أدل على ذلك من أنه لم يحرك ساكنا عندما قتل عمر مثلا. لذا كان هدف معاوية هو (نحن نجزم القول) تأليب قلوب الناس ضد علي حتى لا يزيحه عن إمارة الشام أولا، وحتى لا تكون الإمارة في بني العباس ثانيا، لأن معاوية كان يخشي أن أمر الإمارة كلها قد انتهى إلى بني العباس بتولي عليّ للسلطة، وهو ما حصل بالفعل، فلقد انتقل الحكم من علي إلى ولديه لاحقا حتى تنازل الأول عنها وقتل الآخر دفاعا عنها. وقد كان لموقف معاوية من خلافة علي أكبر السبب (نحن نزعم القول) في أزاحتهم جميعا عن السلطة. فمعطيات الموقف حينها تشير جميعها إلى احتمالية أن تكون مخاوف معاوية حقيقية، فينتهي أمر الإمارة إلى بني العباس، وتضيع أطماع بني أمية فيها وإلى الأبد، فحاول تدبير الأمر من باب الحنكة السياسية لإضعاف بني العباس، والحيلولة دون أن ينتهي الملك (كما صوره والده في بطن مكة للعباس نفسه عندما رأى جيش محمد القادم لفتح مكة حينئذ) إلى بني العباس. فكيف سيوقف هذا الزحف العباسي؟

رأينا: استطاع معاوية أن يوقع المسلمين في إشكالية جدلية إدارية بحتة وهي: أيهما الأولى بالنسبة للخليفة علي: المبايعة أم القصاص من قتلة عثمان؟

وبمثل هذه الحجة استطاع معاوية أن يثير القلاقل حول شرعية خلافة علي وبالتالي إيقاف تفعيل الإمارة إلى إشعار آخر غير معلوم. وبمثل هذه الحجة استطاع أن يجتذب مجموعة من كبار الصحابة إلى

صف المطالبين بالقصاص كأولوية قصوى تقدّم على المبايعة. وفي هذا الشرك وقع علي ومن معه في الفخ الذي نصبه لهم معاوية. فبدلا من القبول بالأمر أصبح الخلاف هو سيد الموقف، فانتقل الأمر من المطالبة بالمبايعة (الإمارة) إلى شخصنة الخلاف حول الخلافة. فلربما كان منطق معاوية حينها هو أن الذي لا يقتص لدم عثمان في الحال ربما لا يستحق خلافته. ولما لم يكتم المؤيدون لعلي (الملتفون حوله حينئذ) قلقهم من شخصية معاوية نفسه، ومن معرفتهم لحبه في الإمارة، أصبحوا من المروجين لفكرة أن معاوية يريد الوصول إلى الحكم مكان علي بأي وسيلة كانت. فأظهروا الأمر وبكأنه انقلاب على الشرعية (كما فعل السيسي مثلا بمرسي مصر). ففي حين أن أنصار مرسي أصبحوا يدافعون عن صاحبهم بحجة أن خصمه السيسي راغب في الحكم، كان أنصار السيسي يبدون قلقهم من سياسة مرسي. فما الذي يمكن فعله بعد أن تفاقمت الأزمة السياسية بين الطرفين؟ هذا مثال للتوضيح وليس للمقارنة (الكلام هنا موجه لمن برعوا في اجتزاء النصوص من سياقاتها للتشهير بأعراض الناس على المنابر).

السؤال: كيف نفذ معاوية خطته؟

رأينا: لعل أهل العلم لم يختلفوا في طلب معاوية نفسه من علي قبول التحكيم في الأمر، وبالرغم من مشورة بعض أهل علي أنفسهم وبعض مؤيديه بعدم الرضوخ لطلب معاوية وعدم الخروج للتحكيم، لشعورهم بأن مكيدة ما تفوح روائحها في الآفاق، إلا أن عليّا قد وقع في الفخ عندما قبل بمبدأ التحكيم، عندها كان معاوية يرى أنه لابد من تدبير الأمر بطريقة تنتهي إلى شق عصا الطاعة على علي، فكيف سيفعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن معاوية لم يكون ليرضى بأقل من وجود كبار الصحابة في حادثة التحكيم، فقد استطاع حتى الساعة أن يجلب في صفه طلحة والزبير، وهم من المطالبين فعلا بأخذ القصاص العاجل من قتلة عثمان. ففي حين أن طلحة والزبير كانا يريان أن عليّا قد تقاعس فعلا عن الأخذ بثأر عثمان من قتلته، كان معاوية يستخدم ذلك حجة لإضعاف بني العباس، الغريم التقليدي لبني أمية في تولي إمارة المسلمين قاطبة. لكن وجود بعض الصحابة كطلحة والزبير لم يكن ليحقق مآرب معاوية كما يريدها، فما الذي سيفعله؟

تخيلات مفتراة لا تصدقوها: لم يكن معاوية – نحن نظن- ليترك الفرصة تفوته، فقد أرسل إلى عائشة طالبا منها التدخل في التحكيم لما لها من مكانة عند المسلمين كواحدة من أمهاتهم، وكشخصية معتبرة من أولي الأرحام بعلي نفسه مروجا للأمر من باب منطوق الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب:6]

وقد كانت موافقة عائشة على الخروج إلى موقع التحكيم يقع – نحن نفتري القول- تندرج في باب الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

لكن هل كان هذا فعلا ما يريده معاوية؟ وهل هذا فعلا ما كان معاوية يخطط له؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فما أن ركبت عائشة جملها وخرجت بناء على طلب مباشر من معاوية، وما أن أدرك معاوية أن عائشة قد أصبحت في منتصف الطريق، لم تصل بعد إلى الموقع التحكيم وتحاول درء الفتنة الكبرى، ولما أدرك أنها لا تستطيع الآن العود إلى الوراء، حتى عمد إلى فعل أمرين اثنين متزامنين:

1. الإشاعة بين الناس أن خروج عائشة قد جاء بطلب منه
2. إحداث الاقتتال قبل وصول عائشة إليهم

السؤال: لماذا فعل معاوية ذلك؟

رأينا: لم يكن معاوية (كسياسي يخطط لينجح) ليخطئ هدفه، فهو يعلم العلاقة التاريخية السابقة بين عائشة وعلي، وهو يستطيع الآن ترويج الشائعات كما يحلو له، ولن يجد كثير عناء في إقناع كثير من الناس (خاصة العوام منهم) على أن عائشة (مادام أنها قد وافقت على الخروج بطلب من خصم علي وهو معاوية نفسه) فهي إذن تناصب عليا العداء، فالعامة من الناس لم ينسوا بعد موقف عليّ من عائشة في حديث الإفك. فانطلت الخطة المحكمة التي دبّرها معاوية على عامة المسلمين، ولازالت تنطلي عليهم حتى يومنا هذا. فهم لازالوا يدافعون عن معاوية ويكأنه صاحب حق تاريخي في خصامه مع عليّ.

السؤال: من الذين لم تنطلي عليهم "خطة معاوية هذه"؟

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن أن الذين لم تنطلي عليهم خطة معاوية وأدركوا على الفور مقصده من وراء ذلك كله هم بعض كبار الصحابة اللذين كانوا في صفه من ذي قبل كطلحة والزبير وعمار.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لمّا كان طلحة والزبير صادقين في مسعاهما، ولما كانا من المسلمين الذين دخل الإيمان في قلوبهم حقا، ولمّا كانا يظنان صادقين أن على عليّ أن يسرع في أخذ القصاص العادل من قتلة عثمان، فهو بالنسبة لهم من كبار الصحابة اللذين لا يجب التهاون في دمهم، خرجا فعلا في بداية الأمر على عليّ، ولكن لما وجدا بعد ذلك أن الأمر لم يعد عفويا صادقا، وإنما أصبح مدبرا من أهل الدهاء في السياسة كمعاوية، تراجعا إلى الوراء على الفور، ولكن كان ذلك قد حصل – للأسف- بعد فوات الأوان، أي بعد أن أعمل السيف بالسيف، وحصل الاقتتال بين الطرفين.

ما الذي فعلته عائشة؟

رأينا المفترى: نحن نظن جازمين أن عائشة لم تكن خارجة مع معاوية (بطلب منه) لتناصب عليّا العداء، وإنما خرجت (نحن نؤمن) بطلب من معاوية لحضور التحكيم في الأمر بهدف الإصلاح بين الطائفتين من المؤمنين. ولكنها ما أن وجدت نفسها في ذلك الوادي حتى أدركت المنزلق الخطير الذي نصبه لها ابن أبي سفيان، خاصة عندما عمد نفر من الصحابة إلى تذكيرها بما قاله النبي يوما من أمر خروجها في جيش الفئة التي ستقاتل عليّا، عندها فقط أدركت أن الخدعة قد انطلت عليها، كما انطلت من ذي قبل على كثير من صحابة الرسول كأمثال طلحة والزبير وعمار بن ياسر، فلقد استطاع معاوية (بدهائه وذكائه السياسي) أن يوقعهم جميعا في شرك لم يستطيعوا الخروج منه إلا بعد فوات الأوان. فحاولت الرجوع إلى الوراء إلا أن ذلك لم يعد ضروريا بالنسبة لمعاوية، فالغاية قد أدركت والوسيلة قد نفذت، وما عاد رجوعها

أو تقدمها يفيد في شيء، فقد أصبحت المعركة هي معركة جملها، وقد أصبحت المعركة هي صفينها الذي بلغته.

السؤال: دعنا نصدّق هذه التخيلات التي افتريتها من عند نفسك، يقول صاحبنا، فهل كان في ذلك خير للمؤمنين حينئذ؟ وهل كان في ذلك خير للمؤمنين في كل وقت وحين؟ كيف سنقتنع أن في ذلك خير للمؤمنين وقد قُتل في تلك المعارك (كما تقول بعض روايات أهل العلم) أكثر من سبعين ألفا من المسلمين؟

جواب: نعم. نحن نظن أن ذلك هو الخير كل الخير، وأن هذه هي حكمة الله في فتنة الناس في كل وقت وحين. فكيف ذلك؟

رأينا المفترى: غالبا ما تساءل كثير من الناس عن الفرق بين العيش في زمن الأنبياء أنفسهم والعيش في زمن غير زمن الأنبياء، فغالبا ما ظن العامة من الناس أن من عاشوا في زمن الأنبياء كان لهم ميّزة على من لم يدركهم، وقلّ من يدرك الحكمة الإلهية من وراء ذلك، وكثيرا ما سمعنا من يجهر بالقول: لِم لم أتواجد في زمن الرسول مثلا؟ ألن أرى بأم عيني معجزات تصدق ظني بمحمد؟ فما بال قوم موسى مثلا يرون الآيات التي جاء بها موسى بأم أعينهم بينما حُرِمنا نحن منها؟ وما بال بعض بني إسرائيل يسمعون المسيح يحدثهم في المهد؟ وما بال البعض الآخر منهم يرون بأم أعينهم كيف كان يحيي الموتى بإذن الله ويشفي الأبرص والأكمة وينبئهم بما يدخرون في بيوتهم؟ أليست تلك ميّزات لهم علينا نحن اللذين لم نراها بأم أعيننا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من العدل الإلهي أن يتساو الناس جميعا، فلا يكون لمن عاصر رسولا (أي عاش في زمنه) فضلا أو ميزة على من جاء بعده. فكيف سيتحقق العدل الإلهي في ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا: إنها الفتنة.

أما بعد،

نحن على العقيدة التي مفادها أن الله هو الفتّان (جملة ذهبية لأهل السرقات الأدبية اللذين يلصقون العبارات المسروقة خارج سياقها الذي وردت فيه)، فانظر – إن شئت- في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: 53]
- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]
- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 85]
- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 3]

- ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24]
- ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: 34]
- ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الدخان: 17]
- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: 155]

فنحن نفتري الظن إذن بأن الله هو من يحدث الفتنة، كما نفتري القول بأن الإله يحدث الفتنة في كل وقت وفي كل حين، وأن ذلك يصيب الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، فحتى موسى نفسه أصابته فتنة الله (**وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا**)، وحصل ذلك لداوود وسليمان كما حصل لآل فرعون.

ونحن على العقيدة التي مفادها أن الهدف من إحداث الفتنة هو ابتلاء ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب:

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: 154]

وأن هذا التمحيص يكون للمؤمنين حقا:

- ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: 141]

وأن السنّة الإلهية مطلقة العدل تقتضي أن لا يترك أحدا دون هذا التمحيص، ليحصل العلم الإلهي بالجميع:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 16]

وأن هذا التمحيص لا شك يحصل سواء كان الرسول موجودا بين ظهرانيهم أم لم يكن متواجدا فيهم. فالله هو من فتن بني إسرائيل في غياب موسى ووجود هارون بين ظهرانيهم:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: 85]

وهذه الفتنة قد حصلت للجميع مادام أن الغرض هو واحد: أن يعلم الله. قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: 3]

السؤال: كيف لازالت فتنة الله جارية حتى يومنا هذا ليعلم الذين صدقوا ويعلم المنافقين؟

رأينا: إنه حديث الإفك. نعم نحن نفتري الظن بأن حديث الإفك هو فتنة الله لهذه الأمة بأكملهما منذ أن جاءت الرسالة الخالدة وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فكيف يكون ذلك؟

رأينا: بداية، لابد من أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى جملة من الثوابت نلخصها بما يلي:

⇐ أولا، ما سنفتريه بعد قليل من قول لا يتعدى أن يكون أكثر من رأي فكري شخصي قابل للتصحيح إن ثبت خطأه. لذا يجب أن يُفهم كلامُنا كلُّه في سياق البحث الأكاديمي، وليس في سياق تشريع العقائد للناس.

⇐ ثانيا، نحن نرى أن لا يُلزِم القارئُ الكريم نفسَه بما نفتري من قول من عند أنفسنا، لأننا ببساطة غير مسئولين عمن يتخذ من كلامنا هذا منهجا، فهو نفسه من يتحمل تبعات القرار الذي يتخذه.

⇐ ثالثا، نحن نرى ضرورة عدم الترويج لهذا المنطق المفترى من عندنا بين الناس، فمن أحب الإطلاع على رأينا فعليه أن يقرأه كما نسطره بأيدينا، لأننا غير مسئولين عمّا يخرج من أفواه من ينقل هذا الكلام بلغته الخاصة.

⇐ الخ.

أما بعد،

السؤال الأول

أين العدالة الإلهية في الفتنة في ضوء وجود أو عدم وجود الرسول بين ظهرانينا اليوم؟

رأينا: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي نقلت عن لسان نوح:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: 5]

لوجدنا أن النتيجة ربما لم تكن مرضية تماما: لأنه ما آمن معه إلا قليل:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي تصور ما كان لإبراهيم من المنّة الإلهية، لوجدنا أن الله هو من آتى إبراهيم رشده:

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء: 51]

ولو عززناها بالآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله هو من آتى إبراهيم حجته على قومه:

- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾ [الأنعام:83]

ولو ربطناها بالآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله قد أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: 75]

لكن السؤال الحتمي هو: ما الذي حصل على أرض الواقع بعد كل هذه الميزات التي أظهرها إبراهيم لمن حوله؟ وما الذي بدر من قومه بعد ذلك؟

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله هو من أرسل موسى بآياته وسلطان مبين:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [هود: 96]

ولو تدبرنا الآيات الكريمة الكثيرة في كتاب الله التي تتحدث عن قصة موسى مع آل فرعون ومع بني إسرائيل، لوجدنا أن موسى قد فعل كل ما يمكن فعله لهداية قوم فرعون ولهداية بني إسرائيل إلى صراط الله المستقيم (كشق البحر بالعصا وإدخال يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء، وتفجير عيون الماء من الحجر والآيات التسعة التي جاء بها آل فرعون، الخ). لكن السؤال الحتمي هو: ما الذي حصل على أرض الواقع بعد كل هذه الآيات المرئية التي أظهرها موسى لمن حوله؟ وما الذي بدر من قوم فرعون أو من بني إسرائيل لاحقا؟ فهل آمن به آل فرعون؟ وهل آمن به كل بنو إسرائيل؟

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 23-25]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن المسيح هو نفسه كلمة الله وروح منه.

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن المسيح قد كلّم الناس في المهد وكهلا:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

ليبرز السؤال نفسه مرة أخرى: ما الذي حصل على أرض الواقع بعد أن أظهر المسيح لمن حوله ما يملك من الآيات التي تثبت صدق رسالته لهم؟ وما الذي بدر من بني إسرائيل الذين كان المسيح رسول الله إليهم؟

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

السؤال المنشود: هل تعتقد – عزيزي القارئ- أن وجود نوح أو إبراهيم بين ظهراني قومه أو وجود موسى أو عيسى أو حتى محمد بين ظهراني الأقوام اللذين أرسلوا إليهم قد أحدث فعلا فرقا كبيرا فيهم حينئذ؟

رأينا: لا أظن ذلك.

- ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

السؤال الثاني

ما فائدة الفتنة إذن؟

رأينا المفترى: ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين:

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 3]

السؤال: ما الفرق في العدد بين الفئتين (الذين صدقوا مقابل الكاذبين)؟

رأينا: نحن نظن أن الغالبية الساحقة ستكون في الطرف الآخر (الكاذبين)، لأن عباد الله قليل، بينما الغالبية العظمى ستقع فريسة سهلة لإبليس وجنوده:

- ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 17]
- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]

نتيجة مهمة جدا جدا: نحن نعتقد أن الذين صدقوا هم اللذين نجوا من فتنة الله لهم في كل وقت وفي كل حين، وهم الذين لم يستطع الشيطان أن يوقعهم في شركه، وهم – لا شك- قليل.

السؤال: ما علاقة هذا بما نحن عليه من حديث الإفك؟

رأينا: نحن نؤمن أنه من المنطقي لا بل من بديهيات التفكير أن لا ننظر إلى الأمر وكأننا استثناء عن الخلق أجمعين. فهذه المعادلة تنطبق علينا كما انطبقت على غيرنا: فعباد الله الشاكرين هم قليل، والغالبية الساحقة من الناس هم من الفئة التي يستطيع الشيطان أن يسقطهم في شراكه بكل يسر وسهولة.

السؤال: كيف يمكن ربط هذا الكلام بواقع الأمة التي تظن أنها تنتمي إلى الإسلام الآن؟ أليس هناك ملايين الملايين ممن يظنون أنهم ينتمون إلى الإسلام؟ هل فعلا هؤلاء هم مؤمنون صادقون؟

رأينا: كلا وألف كلا. فالغالبية الساحقة قد وقعت فريسة سهلة لمكيدة إبليس وجنوده، أما من نجا من براثن الشيطان فهم قليل.

السؤال: لماذا؟ لماذا تظن أن الناجين ممن يظنون أنهم ينتمون إلى الإسلام قليلون جدا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأنه ببساطة ليسوا مسلمين

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأنهم اختاروا لأنفسهم تسميات غير أن يكونوا مسلمين. فبعضهم ينتمي إلى ... وبعضهم ينتمي إلى ...، الخ. وهؤلاء هم (نحن نفتري القول) الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، فكل حزب بما لديهم فرحون:

- ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: 32]

وهؤلاء هم الذين أعلن الله براءة محمد منهم تماما:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام: 159]

السؤال: كيف يمكن التمييز؟

جواب خطير جدا جدا جدا: إنه حديث الإفك

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المؤمنين الصادقين هم كل من نأى بنفسه عن حديث الإفك تماما، وهم من ظنوا بأنفسهم خيرا:

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]
- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

السؤال: وما علاقتنا نحن اليوم بحديث الإفك الذي حصل في الأمس؟ وأين هم اللذين لازالوا يخوضون في حديث الإفك؟

رأينا المفترى: إنهم اللذين اتخذوا عقيدتهم بناء على القسمة التي حصلت بسبب حديث الإفك.

السؤال: وأين اللذين لا يخوضون في حديث الإفك؟

رأينا: إنهم فئة قليلة من الناس، وهم اللذين لا يرضون أن يسمّوا أنفسهم أكثر من أنهم مسلمون وكفى: أنهم الذين ينعتوا أنفسهم بكلمة واحدة: مسلم. انتهى.

السؤال: وأين هم الآن؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأنهم اللذين لا يضعون أنفسهم في فرقة لتهاجم عائشة وهم في الوقت ذاته اللذين لا يضعون أنفسهم في الفرقة الأخرى التي تدافع عن عائشة. فالله هو من تكفل بالدفاع عن أهل البيت:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

لذا، فإننا نفتري القول بأن أهل البيت لا يحتاجون مدافعا عنهم، وكل واحد منهم أكبر وأجل من يلقي سفيها عليهم كلاما لا ينم إلا عن ما وقر في قلبه من البغضاء والحسد. لذا نحن نكاد نجزم القول بأن كل من نصب من نفسه مهاجما لعائشة وكل من نصب من نفسه مدافعا عن عائشة فهو من اللذين لازالوا يخوضون في الإفك، وهؤلاء جميعا(نحن نفتري القول) اللذين لا ينطبق عليهم قول الحق:

- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

السؤال: من هي الفرقة الناجية إذن؟

منطقنا المفترى الذي لا نطلب من القارئ الكريم أن يتخذه عقيدة له ما لم يجد أنه قادر على تحمل تبعات قراره: نحن نرى أن الحكمة تكمن في أن لا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير كما فعلت الأمم السابقة من قبلنا:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

لأنه ليس من الحكمة أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن تطبيق هذه المعادلة الإلهية في وضعنا الحالي؟

رأينا: نحن نظن أن الاستنباط الذي نُجهد أنفسنا للوصول إليه يمكن أن نروّج له على النحو التالي:

⇐ أولا، إن الدين عند الله الإسلام، أليس كذلك؟

- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]

⇐ ثانيا: إبراهيم هو الذي سمّنا المسلمين:

- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 78]

⇐ ثالثا: الله هو من أتمم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام دينا، أليس كذلك؟

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]

⇐ رابعا: الله هو من بيّن لنا أنه لن يقبل ممن يبتغي غير الإسلام دينا:

- ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85]

فلقد كان إبراهيم وذريته من بعده مسلمين:

- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:67]

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 132-133]

وعلى ذلك الدين اختار يوسف أن يموت:

- ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

وكذلك كان موسى وهارون ومن آمن معهم:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]
- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: 126]

وكذلك كان داوود وولده سليمان وكل من آمن معهما:

- ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل: 31]
- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل: 38]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢﴾ [النمل: 42]

وكذلك كان الحواريون:

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

وكذلك كان محمد وصحبه الصادقين:

- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64]

وكذلك كان جميع رسل الله:

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]
- ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]
- ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: 46]

السؤال: ماذا كان محمد وأهل بيته وصحبه إذن؟
رأينا المفترى: مسلمين:

- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 161-163]
- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: 11-12]

النتيجة مفتراة: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تصف عقيدة من كان من الفرقة الناجية:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33]

السؤال الذي أوجهه لنفسي بعد هذا الاستطراد هو: إذا كان الدين عند الله هو الإسلام، وإذا كان إبراهيم هو من سمّانا كذلك، وإذا كان رسل الله جميعا مسلمين، وإذا كان الله هو من رضي لي الإسلام دينا، وإذا كان الله لن يقبل مني إن لم أكن مسلما، وإذا كان محمد قد أُمر أن يكون أول المسلمين، فلم إذن (أنا أتسال) اختار لنفسي أن لا أكون مسلما؟ ولِم اختار أن الحق نفسي بمجموعة لا أعرف من أين جاءت تسميتهم؟ ولم اختار مجموعة تتخذ اسما لا أعرف من الذي سمّاهم إياه؟ ولِم التحق بركب لا أعرف من أين اكتسبوا الشرعية له؟ أليست تلك إذن مسميات هي من عند أنفسهم أو هي ما وجدوا آباءهم عليها؟ ولم التحق بأي جماعة لا أعرف متى بدأت ومتى يمكن أن تنتهي؟!

رأينا: أنا افتري الظن بأن أي تسمية غير الإسلام هي من الأدنى الذي لا أرضى به، لأنني اعتقد جازما أنها جميعا مسميات لا تعدو أكثر مما وجدونا عليها آباءنا عليه.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هناك فرق كبير بين من يدافع عن الإسلام ومن يدافع عن ما وجدوا آباءهم عليه. فغالبا ما تجد كل حزب (وكل طائفة وكل فرقة) يدافعون عن الموروث ليس لأي سبب إلا لأن هذا ما ألفوا عليه آباءهم. وهم لا يؤمنون بأكثر مما وجدوا آباءهم يفعلون.

أما أنا فإنني لا أدافع عن ما وجدت عليه آبائي ولكنني أدافع عن عقيدتي التي ألخصها بما يلي: اللهم أشهدك أني قد وجهت وجهي إليك مسلما حنيفا، وأعوذ بك أن أكون ممن رضي بغير الإسلام دينا، وأبرئ إليك من كل من ينسبني لأي طائفة أو أي

فرقة كانت. وأسألك وحدك أن أكون من حزبك الحق، وليس ممن يتستر تحت مسميات لتمرير عقائد ألفوها من آبائهم، وهم لا يفقهون عواقب ما يفعلون:

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]

والله أعلم

وللحديث بقية إن شاء الله

فالله وحده أسأل أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدنا علما، إنه هو الواسع العليم. وأعوذ بالله أن أكون قد افتريت عليه الكذب أو أن أكون قد قلت عليه ما ليس لي بحق.

والله أعلم